د/ إبراهيم عبد الحميد التلب
أستاذ بقسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر

نظـــرات بلاغيـــة
في
سورة "ق"

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

سورة «ق» مكية، وآياتها خمس وأربعون، نزلت بمكة إلا آية واحدة وهي قوله تعالى: «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب»، فقد أخرج الحاكم وغيره أنها نزلت في اليهود(١). وهو رأي ابن عباس وقتادة.

وهي سورة عظيمة الشأن، جليلة القدر، كان النبي ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

وقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ «ق والقرآن المجيد» و «اقتربت الساعة وانشق القمر».

كما روى عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ «ق والقرآن المجيد»، وكان صلاته بعد تخفيفا.

وقد نزلت بعد «والمرسلات» ونزلت بعدها سورة «لا أقسم بهذا البلد». لكنها تجيء في الترتيب التوقيفي بين سورتي «الحجرات» و «الذاريات».

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٦٥ ط الهيئة العامة سنة ١٩٧٤ م.

والمعروف أن القـــرآن الكريم نزل منجما على حسب الوقائع والأحداث فى نحو ثلاث وعشرين سنة ، ثم جاء ترتيبه بتوقيف من الله عز وجل على نمـط فريد فى بابه ، فالمناسبة موجودة بين الآية والآية ، والعلاقة قوية بين السورة والسورة مما يدل على أن القرآن العظيم كتاب أحكمت آياته وسوره إحكاماً دقيقاً ، وتلك سمة من سمات الإعجاز فى كتاب الله ، فهو كما يقول السيوطى : «على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا ، فالمصحف على وفق اللوح المحفوظ مرتبة سوره وآياته كلها بالتوقيف ، كما أنزل جملة إلى بيت العزة(١) » .

وعلم المناسبة علم شريف قل إعتناء المفسرين به لدقته ، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى ، وقال فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

وقد ألف العلماء فى هذا الفن مؤلفات نفيسة(٢) ، فيها من عمق الفهم ودقة النظر ، وسعة الأفق الشىء الكثير ، وهى تدل على غزارة العـــلم ورهافة الذوق والدراية الواسعة بخصائص النظم القرآنى ، والعلاقات

---

(١) معترك الأقران ١/٥٦ ط دار الفكر .

(٢) من هؤلاء العلماء العلامة أبو جعفر بن الزبير فى كتابه « البرهان فى تناسب سور القرآن والشيخ برهان الدين البقاعى فى كتابه « نظم الدرر فى تناسب الآى والسور » ، وجلال الدين السيوطى فى كتابه « تناسق الدرر فى تناسب السور » .

وفى عصرنا الحاضر وضع الشيخ محمد عبد الله دراز كتابه « النبأ العظيم » وقد تناول فيه الوحدة الموضوعية فى السورة الكاملة ، وما بين آياتها من تلاؤم وإرتباط .

بين المعانى المبانى . وأثر ذلك كله فى إرضاء العقل وإشباع النفس ، وتلك — لعمرى — مهمة جليلة لا يطمح إليها إلا أفذاذ العلماء وجهابذة المفكرين ، وقليل ما هم .

والقرآن نسيج وحده فى دقة التعبير وقوة التأثير ، وعلو التراكيب وجلالة المفردات وتلاؤم الحروف وتناسب النظم ورشاقة الجمع ، وحلاوة التفصيل فهو بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز جميع الخلق عنه ، أى أنه خارج عن طوق البشر ، لأنه كلام رب العالمين .

• • •

وهذه السورة الكريمة تعالج أصول العقيدة الإسلامية وهى : الوحدانية والرسالة والبعث ، كما هو الشأن فى السور المكية من الدعوة إلى توحيد الله وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك بأثبات عقيدة التوحيد والحث على تطهير القلوب من الرذائل ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، فهى آيات عقائد وأخلاق ، تهدف — أولا — إلى إصلاح العقيدة ، لأنها أساس البناء الإيمانى .

لكن الغرض الرئيسى فى هذه السورة هو موضوع «البعث والنشور» وقد أثبته القرآن الكريم بالبرهان الناصع والدليل الساطع مما يدل على أن البعث حق ، وأن الحساب على الخير والشر كائن لا محالة .

وقد امتازت هذه السورة بقصر الآيات والفواصل ، وقوة الألفاظ وعنف الخطاب ، لتتناسب مع عنف أخلاقهم وقساوة قلوبهم ، ونحن نلاحظ هذه السمات بوضوح فى الآيات المكية على وجه العموم . وهذه السورة شديدة الوقع على الحس ، تهز القلب هزا ، وترج النفس رجا ، وتثير فيها الروعة واللوعة بما حوت من ترغيب وترهيب

أهداف السورة إجمالا :

من الخير أن أنقل هنا ما ذكره الفيروز بادى فى هذا الصدد حيث يقول : « مقصود سورة « ق » إثبات النبوة للرسول ﷺ ، وبيان حجة التوحيد ، والإخبار عن إهلاك القرون الماضية ، وعلم الحق تعالى بضمائر الخلق وأسرارهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة وذل العصاة يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضا فى ذلك اليوم ، وتفيظ الجحيم على أهله وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخليق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور ، وتكليف الرسول ﷺ أن يعظ الخلق بالقرآن المجيد »(١) .

وقد بدأت السورة بالحديث عن البعث بعد الموت ، وهو الأمر الذى أنكره المشركون وتعجبوا منه واستبعدوه « ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ... » الآيات .

ثم لفتت السورة أنظار الناس إلى آثار قدرة الله ودلائل ربوبيته وشواهد عظمته فى هذا الكون المتناسق البديع ، فى العالم العلوى والعالم السفلى والماء والنبات والتمـــر والطلع والنخيل والزرع . وكلها آيات شاهدة بوحدانيته وكمال قدرته « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » الآيات .

ثم وجهت السورة عقولهم إلى الاعتبار بالتاريخ ، وما حدث للمكذبين من الأمم السابقة من الهلاك ، تقريراً لسنن الله الكونية فى إهلاك أهل

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١/٤٣٧ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

الكفر والعصيان ، وانتصار أهل الهدى والإيمان « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ... » الآيات .

وعرضت السورة بعض مشاهد القيامة من سكرات الموت إلى أهوال الحشر والوقوف بين يدى الله للثواب والعقاب ، وتحدثت عن المصير المؤلم للعصاة والمعاندين فى جهنم وبئس المصير « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ... » الآيات

وفى ختام السورة حديث عن صيحة الحق ، حيث يخرج الناس من من القبور كأنهم جراد منتشر ، ويقفون للعرض على الله فى موقف مهيب جليل « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ... » الآيات .

المناسبة بين هذه السورة وما قبلها وما بعدها :

أول هذه السورة « ق والقرآن المجيد » مناسب لآخر ما قبلها ، فقد ختم الله سبحانه وتعالى سورة الحجرات بما يدل على إحاطة العلم فى قوله « إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » .

وقال أول هذه « ق » إشارة إلى أنه سبحانه هو وحده المحيط علما وقدرة بما له من العلو والقوة والقيومية والقهر ونافذ القضاء والفتح لما أراد من المغلقات .

وهذا ما أشارت إليه القاف بصفاتها ، وأظهرت بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاث وهى الحلق واللسان والشفتان .

أما من ناحية مخرجها فإنه من أصل اللسان مما يلى الحلق ويحاذيه من

الحنك الأعلى ، وفى ذلك إشارة إلى أن المقصود من السورة الأصل والعلو ، وكل منهما دال على الصدق دلالة قوية ، فإن الأصل فى وضع الخبر الصدق ، ودلالته على الكذب عقلية لا وضعية ، وهى أيضا محيطة بإسمها ومسماها بالمخارج والإحاطة بالحق لا تكون إلا مع العلو ، كما أنها لا تكون إلا مع الصدق ولإحاطتها سمى بها الجبل المحيط بالأرض .

وأما صفتها فإنها عظيمة فى ذلك ، إذ من صفاتها الجهر والشدة والإنفتاح والإستعلاء والقلقلة ، وكل منها ظاهر الدلالة على هذه المعانى .

وبهذه السورة المفتتحة بالحرف « قاف » وما فيها من إثبات المجد لهذا الكتاب ظهر اختصاص القرآن وتميز عن سائر الكتب ، لتضمنها الإحاطة التى لا تكون إلا للخاتم الجامع .

وأول هذه السورة وآخرها متناسبان أيضا ، فقد قال تعالى فى أولها « ق والقرآن المجيد » وفى آخرها « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » فختمها بما افتتحت به من الحديث عن القرآن العظيم .

وأما مناسبتها للسورة التى بعدها وهى سورة « الذاريات » فهى واضحة جلية ، فقد تحدثت سورة ق فى مطلعها عن إنكار المشركين للبعث والحساب ، فجاءت سورة الذاريات تدفع إنكارهم وتدحض شبههم بمختلف أساليب الإقناع ومنها القسم بالذاريات وما يليها .

وهى بذلك تؤكد وقوع البعث والحساب ، وصدق الوعيد والإنذار ، فمقصودها الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة «ق» تصريحا ، وبشرت به تلويحاً ، ولا سيما آخرها من مصائب الدنيا وعذاب الآخرة للمكذبين وسعادة الدارين للمتقين .

وبين السورتين تشابه فى كثير من الأغراض والمقاصد والأساليب

وقوة الألفاظ وعنف الخطاب وبراعة الحوار وشدة التحدى حيث يقتضى المقام ذلك .

وكلتا السورتين تهدف إلى تطهير القلوب من الشرك والوثنية ، وتزكية النفوس من نوازع الشر ، وإصلاح السلوك الإنسانى بواسطة منهج ربانى قويم ، لا تناقض فيه ولا تعسف ، ولا كبت ولا إرهاق . إنه منهج العدل والوسطية الذى يكفل للإنسان الفوز بسعادتى الدارين .

* * *

وهذه نظرات فى « سورة ق » حاولت فيها — بقدر المستطاع — أن أبرز بعض خصائص الأسلوب القرآنى فى تلك السورة الكريمة ، وما يحويه من دقة الألفاظ وجلال المعانى وجمال النظم وروعة الصياغة . وهذه السمات تتضافر فى تحقيق هذا الأسلوب المعجز الذى يملأ النفوس رغبة ورهبة .

وقد اقتضى المقام البدء ببيان معانى المفردات والتراكيب ثم الانتقال إلى الأسرار البلاغية وهى بيت القصيد ، مع ذكر المعنى العام للآيات . والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم إنه على ما يشاء قدير وهو حسبى ونعم الوكيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج » .

المفردات والتراكيب :

افتتحت السورة باسم هذا الحرف « ق » من حروف الهجاء ، مثل « ص ، ن » و « ألم ، ألر ، حم ... » وغيرها . وهذه الحروف ونظائرها أسماء مسمياتها هذه الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم .

والجمهور على إسكان الفاء في القراءة ، فيقولون « قاف » بناء على أن حروف التهجي أسماء لمسمياتها ، والأصل في الأسماء العارية عن العوامل الوقف على السكون(١) .

وقد اختلف العلماء في بيان المعنى المراد منها :

فقال بعضهم : إن هذه الفواتح مما استأثر الله بعلمه ، والله أعلم بمراده منها . وعلى ذلك فلا محل لها من الإعـــراب ، وإنما هي بمنزلة حروف التهجي ، فهي محكية عند الخليل وسيبويه .

ويرى بعض العلماء أن هذه الحروف أسماء السور المصدرة بها ، وعلى ذلك تكون « ق » اسماً لهذه السورة ، ولها محل من الإعراب ، كسائر

---

(١) وقرىء « قاف » بفتح الفاء ، و « قاف » بكسرها ، وكلاهما لالتقاء الساكنين . وجه الفتح الإتباع لصورة الألف لأنها منها ، ووجه الكسر كونه أصلا لتحريك الساكن ، ولك أن تجعل المفتوح منصوباً بإضمار الفعل إن جعلت قاف اسماً للسورة ، وعدم تنوينه ، لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

الأعلام ، ومحلها الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : هذه ق . أى : هذه السورة التى أعجزت العرب والقرآن المجيد ، أو فى محل نصب على تقدير : إقرأ ق .

وقيل : هى اسم من اسماء الله تعالى ، أى جزء من اسم من أسمائه الحسنى فالقاف ترمز إلى القاهر أو القدير على سبيل المثال .

وقيل : إنها تشير إلى اسم ملك من الملائكة ، أو نبى من الأنبياء ، أو فصلة من الفصم(١) .

وقيل : هى قسم أقسم الله تعالى به ، مجرور باضمار حرف القسم .

والرأى الذى يطمئن إليه قلبى أن افتتاح السورة باسم هذا الحرف من حروف الهجاء جاء على سبيل التحدى والتنبيه على الإعجاز . ومثلها فى ذلك كل السور التى افتتحت بالحروف المقطعة مثل : ألم ، ألر ، طس ، حم ، ص . .

فقد أعلم الله العرب حين تحداهم بالقرآن ، أنه كلام مؤلف من هذه الحروف التى منها بناء كلامهم ، وذلك للإيقاظ وتحريك النظر فى هذا المتلو عليهم ، ومع ذلك عجزوا عن معارضته ، بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار وأرباب الفصاحة وأساطين البيان ، وقد خضعت لهم أعنة القول ، ودانت لهم الأساليب ، فدل عجزهم هذا على أنه ليس من كلام البشر ، ولكنه كلام خالق القوى والقدر . وصدق الله إذ يقول . « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٧ / ٢ ط دار الكتب ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

وعلى هذا الرأى الأخير تكون هذه الحروف أسماء لمسمياتها ، فلا محل لها من الإعراب ، إذ لم تفد معنى فى نفسها ، فهى كالمفردات المعدودة .

والقرآن المجيد :

القرآن فى الأصل مصدر قرأ على وزن فعلان — بالضم — كالغفران والشكران والكفلان . تقول : قرأته قرءا وقراءة وقرآنا بمعنى واحد . أى : تلوته تلاوة وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدرى فى قوله تعالى : «إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه» أى قراءته(١)

ثم صار علماً شخصيا لذلك الكتاب الكريم ، وهذا هو الغالب فى استعماله .

ومنه قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »(٢) وعلى ذلك يكون لفظ قرآن منقولا من المعنى المصدرى إلى العلمية . حيث جعل اسما لكلام الله المعجز المنزل على نبيه محمد ﷺ المتعبد بتلاوته ، والمتحدى بأقصر

---

(١) هذا هو رأى ابن عباس فى جعل القراءة بمعنى التلاوة ، وهو الراجح ، وقد ذهب قتادة إلى أن القراءة تعنى الضم والجمع والتأليف . تقول : قرأت الشىء أى جمعته وألفته وضممت بعضه إلى بعض . ومنه قول العرب : ما قرأت هذه الناقة جنينا . أى ما ضمت فى رحمها ولدا ، وعليه فالقرآن أطلق على مفعوله ، لأن القرآن مقرون أى ضمت آياته بعضها إلى بعض راجع تفسير الطبرى ١ / ٩٦ وما بعدها .

(٢) سورة الإسراء : ى ٩

سورة منه ، وهذا من إطلاق المصدر على المفعول ، لأن القرآن مقروء من الناس .

وبعض العلماء يسهل همزة « قرآن » ، ولكن الغالب النطق بها .

والمجيد : الرفيع القدر : يقول الزمخشري : « والمجيد : ذو المجد والشرف على غيره من الكتب . ومن أحاط علماً بمعانيه . وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس وهو بسبب من الله المجيد ، فجاز أتصافه بصفته »(١)

وعلى ذلك فوصف القرآن بالمجيد إما على أنه من باب النسب كلابن وتامر أى ذي تمر ولبن . والقرآن ذو شرف على سائر الكتب باعتبار مافيه من العلم والإعجاز .

أو من قبيل وصف الكلام بوصف قائله ، أو بوصف من علمه وعمل به .

وقيل : المجد : السعة والكرم ، والقرآن كثير الكرم ، لأن من طلب منه مقصوداً وجده ، واستغنى ببيانه وارشاده .

والقرآن المجيد : قسم حذف جوابه . والتقدير : أقسم بالقرآن الكريم ذو المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثن بعد الموت ، يدل عليه قوله تعالى حكاية عن الكافرين : « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد »

وهذا الحذف كثير فى القرآن . وقيل جواب القسم قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » على تقدير اللام .

---

(١) الكشاف ٤ / ٣ ط مصطفى الحلبي .

أى : لقد علمنا . وقيل جوابه : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

وقيل : تقديره : « إن محمداً رسول » فحذف اعتماداً على دلالة قوله بعده « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » .

وقيل التقدير : والقرآن المجيد إنه كلام معجز : دل عليه التحدى بقوله « ق » . لكن الرأى الأول هو الراجح ، وبه قال جمهور المفسرين

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم :

بل حرف إضراب . والاضراب نوعان : ابطالى وانتقالى ، والذى فى هذه الآية من النوع الثانى ، ومعناه الانتقال من حديث إلى آخر ، لكن ما المضرب عنه هنا ؟

الظاهر أنه مضمون الجملة القسمية ، فإنه تعالى لما أقسم بالقرآن المجيد على حقية البعث ، أو أنه عليه السلام رسول مبعوث الإنذار بالبعث ، وأنه يجب الإيمان بكل واحد منهما . أضرب عن الحكم المقسم عليه إلى توبيخ الكفار . لتعجبهم مما ليس بعجب . وهو أن يكون الرسول المنذر بشرا مثلهم .

والعجب : تغير النفس ، لأمر خارج عن العادة ، أى عجبوا لكون الرسول المنذر بالبعث بشراً مثلهم ، والمراد بالمنذر هنا محمد ﷺ فهو البشير النذير . ولما كان المقام لتخويف من أنكر البعث اقتصر هنا على الإنذار فقال . أن جاءهم منذر منهم » . والمصدر المؤول من أن والفعل مجرور بعامل مقدر أى : من مجىء منذر منهم .

فقال الكافرون هذا شىء عجيب : فيه رأيان :

أحدهما : أنه حكاية لتعجبهم ، وهذا : إشارة إلى اختيار الله محمداً للرسالة وإضمار ذكرهم ثم إظهاره ، للاشعار بتعينهم لهـــذا المقال . ثم التسجيل على كفرهم بذلك .

وعلى ذلك يكون قوله « فقال الكافرون » معطوفا على « عجبوا » من قبيل عطف تفصيل المجمل على المجمل ، كما فى قوله تعالى : « ونادى نوح ربه فقال . . . . » فلا تكون الفاء العاطفة للتعقيب الزمانى ، بل للدلالة على أن مابعدها كلام مرتب على ماقبلها فى الذكر ، لأن تفصيل الشيء إنما يصح بعد ذكره .

وثانيهما : أنه عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة ، وعلى ذلك فهو من قبيل عطف أحد المتغايرين على الآخر . و « هذا » إشارة إلى البعث الذى يفسره قوله « أئذا متنا وكنا ترابا » . فعلى هذا يجوز أن تكون الفاء للتعقيب الزمانى ، لجواز أن يكون تعجبهم من البعث عقب تعجبهم من البعثة .

أئذا متنا وكنا ترابا : الهمزة للاستفهام ، والاستفهام هنا على سبيل الانكار .

إذا ظرف زمان فى أصل معناه ، لكنه ضمن معنى الشرط ، وهو منصوب بمضمر دل عليه آخر الآية . والتقدير : أحين نموت ونبلى نرجع .

وقرىء « إذا متنا » على لفظ الخبر ، ومعناه : إذا متنا بعد أن نرجع بدلالة قوله « ذلك رجع بعيد » .

ذلك رجع بعيد : المشار إليه هنا هو مضمون الخبر برجوعهم إلى الحياة مرة أخرى .

رجع بعيد : رد مستبعد مستفكر ، كقولك : هذا قول بعيد ، وقد أبعد فلان فى قوله .

ويذكر العلامة الزمخشرى فى الآية وجهاً آخر ، فيقول : « ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع ، وهو الجواب . ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن . فإن قلت : فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ؟ قلت : ما دل عليه المنذر من المنذر به . وهو البعث »(١) . كأنه قيل : أنبعث إذا متنا وكنا تراباً .

وتفسير الرجع بالمرجوع له أصل فى اللغة . يقول الجوهرى : « تقول أرسلت فما جاءنى رجع رسالتى أى مرجوعها . ويقال ما كان من مرجوع فلان عليك ، أى من مردوده وجوابه . ويقال : هل جاء رجعة كتابك . أى جوابه .

وعلى هذا الرأى يكون قوله « ذلك رجع بعيد » من كلام الله ، لا من تتمة كلام الكفرة فلا يصلح دليلا على المحذوف . ويكون « ذلك » إشارة إلى قولهم « أئذا متنا » أى أن قولهم هذا فى جواب من أنذرهم بالبعث والجزاء جواب بعيد عن الصواب .

ما تنقص الأرض منهم : هذا رد على الكفار فى إنكارهم البعث . ومعناه : قد علمنا ما تنقص الأرض من لحومهم وعظامهم ودمائهم بعد الموت ، فلا يغيب عنا شىء حتى تتعذر الإعادة . وهو قول ابن عباس والجمهور ، وهو أظهر(٢) .

---

(١) الكشاف ٤/٤ ط الحلبى .

(٢) معترك الأقران للسيوطى ٢/٤٣٢ .

وقيل : المعنى قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ، لأن من مات دفن ، فكأن الأرض تنقص من الناس(١) .

وعندنا كتاب حفيظ : أى مع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لمدتهم وأسمائهم .

وعلى هذا يكون حفيظ بمعنى حافظ : فعيل بمعنى فاعل . وقيل كتاب حفيظ أى محفوظ من الشياطين ومن التغيير ، أو محفوظ فيه كل شيء ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، وهو اللوح المحفوظ .

وقيل : المراد بالكتاب : العلم والإحصاء ، كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته . وهذا رأى مرجوح ، فيه ترك الظاهر من غير ضرورة .

بل كذبوا بالحق : إضراب آخر بعد الإضراب الأول فى قوله بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع وأشنع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق أى النبوة الثابتة بالمعجزات فى أول وهلة من غير روية ولا تفكر ولا تدبر .

وقيل : الحق هو القرآن الكريم . كذبوا به حين جاءهم مع سطوع آياته ووضوح بيانه وعجيب تأليفه .

لما جاءهم : لما ظرف زمان ، والعامل فيه كذبوا ، أى : كذبوا بالحق حين جاءهم .

وقرىء : لما جاءهم — بكسر اللام وما المصدرية — واللام هى التى فى قولهم : لخمس خلون أى : عند مجيئه إياهم .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٧/٤ .

فهم فى أمر مريج : مريج أى مختلط مضطرب . وأصل المرج : الاضطراب والقلق .

يقال : مَرِجَ أمر الناس ، ومَرِجَ أمرُ الدين ، ومَرِجَ الخاتم فى إصبعى ، إذا قَلِقَ من الهزال . وفى الحديث الذى أخرجه أبو داود : كيف بك يا عبد الله إذا كنت فى قوم قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا ، فكانوا هكذا وهكذا وشبك بين أصابعه .

وقال أبو هريرة : مريج أى فاسد ، ومنه مرجت أمانات الناس أى فسدت . ومرج الدين والأمر : اختلط . قال أبو داود :

مَرِجَ الدينُ فأعددْتُ له
مشرفَ الحارك محبوكَ الكَتَدْ(١)

أى أن هؤلاء الكفار بعد أن استبعدوا البعث وعجبوا مما ليس بعجب جاءوا بما هو أفظع من ذلك وهو التكذيب بالنبوة المؤيدة بالمعجزات ، فصاروا بسبب ذلك فى قلق واضطراب ، يقولون مرة ساحر ، ومرة شاعر ، ومرة كاهن ولا يثبتون على شىء واحد .

والاضطراب موجب للاختلاف ، وذلك أدل دليل على البطلان ، كما أن الثبات والاتفاق موجب للاتفاق ، وذلك أدل دليل على الحقيقة .

وقد أصاب ابن القيم فى بيان سر اختلاف الكافرين وتباين آرائهم فى أمر الدين . يقول : « لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم فإن الحق شىء واحد وطريق مستقيم ، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب(٢) .

---

(١) الحارك : الكاهل . والكتد : مجمع الكتفين من الفرس .
(٢) التبيان فى أقسام القرآن ص ١٨١ .

أسرار بلاغية :

ابتدأت السورة الكريمة بأسلوب يسترعى المخاطب ويثير انتباهه ، ألا وهو أسلوب القسم « ق والقرآن المجيد » .

وتتلخص أغراض القسم فى أمرين هما : تعظيم المقسم به ، وتأكيد المقسم عليه ، وبقدر وفائه بهذين الغرضين تكون بلاغته ، ويكون تأثيره فى النفس .

والله سبحانه وتعالى يقسم بالقرآن المجيد تعظيما له ، وإكبارا لشأنه ، لأن الله لا يقسم بشىء إلا وفيه موضع للعبرة ، وموطن للعظة والذكرى ومجال رحب للتأمل والاستبصار ، ولا عجب فى ذلك . فهو المنهل العذب والمنبع الفياض لشرع الله ، وهو أساس كل خير . ومناط كل فضيلة ، وهو قبلة الباحثين والدارسين على مر العصور والأجيال ، لأنه موصول العطاء لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد والتكرار ، فالقسم به لتعظيمه وتوجيه الأنظار إليه ، ودعوة العقلاء لتدبر معانيه ، والتعرف على دقائق أسراره ، لما فى ذلك من تعميق الإيمان وترسيخ اليقين .

وإنما يحسن القسم فى مقام الإنكار لأن الانكار يقتضى توكيد الخبر ، والمقسم عليه وهو البعث والجزاء مما أنكره المشركون واستبعدوه ، ولذلك جاء القسم لتوكيد المقسم عليه وتقريره فى نفوس العباد ، ليوقنوا به .

والمناسبة واضحة بين المقسم به والمقسم عليه ، فهما يتصلان إتصال الدليل بالمدلول والمقدمة بالنتيجة ، فالقرآن هو المعجزة الدالة على صدقه ﷺ فى دعواه الرسالة . فالقسم به على البعث يكون إشارة إلى الدليل على طريقة القسم . فمتى ثبت أن القرآن حق فقد ثبت صدق الرسول الذى جاء به ، ومتى ثبت صدق الرسول فقد ثبت البعث الذى أنذرهم به . فهذه

الأمور الثلاثة متلازمة ، وثبوت أحدها يستلزم ثبوت أخويه ، والله سبحانه وتعالى يقسم على هذه الأصول ويقررها أبلغ تقرير لحاجة النفوس إلى معرفتها والإيمان بها . ولا شك أن المقام يقتضى هذا التقرير والتوكيد حتى تتمكن تلك الأصول فى النفس فضل تمكن ، فالقسم هنا واقع موقعه ، وهو فى غاية القوة والإعجاز .

وقد جرت عادة العرب توكيد عظائم الأمور به ، فجاء القرآن على وفق ماجرت به عادتهم فى تقوية الأسلوب ، وتوكيد الكلام به ، حيث يقتضى المقام ذلك .

والقسم نوع من الإنشاء لا مندوحة للخصم من الاقرار به ، لأنه كلام إنشائى لا يحتمل الصدق والكذب ، فلا يستطيع المخاطب حياله الإنكار أو التكذيب ، وإن استطاع أن ينكر الجواب ، لأن جواب القسم خبر لا إنشاء .

ولذلك كانت الأساليب الانشائية أكثر اجتذابا للسامعين وتأثيراً فى نفوسهم من الأساليب الخبرية ، لأن الجملة الانشائية التى لا تحتمل أن يقال لقائلها صدقت أو كذبت تحوى من الاثارة والتأثير فى العاطفة مالا تحويه الجملة الخبرية .

وأما حذف جواب القسم ففيه من الإيجاز والمبالغة ما فيه ، فالمقام له لدلالة السياق عليه ، فالحذف خلاف الأصل ، ولكن إذا صادف موقعه ، وكان فى الكلام دليل عليه فهو أفضل من الذكر . فالحذف فى موضعه كالذكر فى موضعه حسناً ومزية .

وفى حذف الجواب إشارة إلى أن المقسم عليه وهو البعث ، والجزاء أظهر من أن يذكر لقيام الأدلة على إمكانه عند التأمل ، لأن

الحذف فى بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر . فالله تعالى يقول : لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر .

وفى حذفه أيضاً تفخيم وتعظيم لشأن البعث الذى هو مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى لما فى الحذف من الإبهام ، فهو يؤدى أن تذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، فيزداد شوقها إليه ، وحرصها على إدراكه ، فإذا عرفته وقع منها موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

ويلوح هنا سر آخر وراء هذا الحذف ، وهو أنه يسد على المخاطب المنكر طريق الاعتراض ، فلا ينتقل من القسم وهو إنشاء إلى الجواب ، وهو خبر ، لئلا يمارى المنكر فى الجواب ، بل ينتقل من القسم إلى كلام آخر له ارتباط بالجواب المحذوف ، وبذلك يكون القسم كالتمهيد والتنبيه ، فيسترعى سمع المخاطب ، ويثير انتباهه ليسمع ما بعد القسم ، فيفاجأ بكلام آخر يؤيد الغرض من القسم نفسه .

وفى قوله « بل عجبوا أن جاءهم منذر » إضراب عن جواب القسم إلى الإخبار عن تعجبهم مما ليس بعجب ، وذلك توبيخاً للكفار بالبعث ، وبياناً لحالهم الزائدة فى الشناعة على عدم الإيمان .

ونبه بقوله « بل عجبوا » على جهلهم ، لأن التعجب من الشىء يقتضى الجهل بسببه ويستلزمه ، ولذلك لم يكتفوا بالشك فيه ، بل جزموا بخلافه ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، كما يحكى القرآن عنهم فى أكثر من موضع .

وفى قوله « بل عجبوا » إضمار فى موضع الإظهار ، وذلك للإشعار بأنه إذا ذكر شىء خارج عن سنن الاستقامة انصرف إليهم ، لاشتهارهم بالإنكار والتعجب من أمر البعثة والبعث فى الآخرة ، فهم ليسوا بحاجة إلى التصريح باسمهم .

وقوله « فقال الكافرون » من وضع الظاهر موضع المضمر ، ولم يقل « فقالوا » للتشنيع عليهم بالكفر ، وأنهم فى قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم .

وفيه أيضا دلالة على أن هؤلاء القوم لم يخف عليهم شىء من أمره ، ولكنهم ستروا تعديا مرأى عقولهم الدالة على جميع أمره دلالة ظاهرة .

وقوله « منذر منهم » فيه تقييد المنذر بكونه واحداً من جنسهم ، وقد عجبوا من ذلك ، وكانوا يقولون : « أبشراً منا واحداً نتبعه » أى كيف يجوز إختصاصه بهذه المنزلة الرفيعة والشرف العظيم مع إشتراكنا فى الحقيقة ولوازمها .

وأرى فى هذا التقييد إبطالا لتعجبهم ، لأنه إذا كان المنذر واحداً منهم ، يعيش بين أظهرهم ، وظهر عليه ما عجزوا عنه جميعا ، كان يجب عليهم أن يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عند بشر غيره ، بل هو عند الله ، بخلاف مالو جاءهم ملك وأتى بما يعجزون عنه ، فأنهم سوف يقولون : نحن لا نقدر ، لأن لكل نوع خاصية .

وحق من كان منهم أن يكون ناصحاً لهم مشفقا عليهم يحذرهم ، والحذر منه غاية المخاوف ونهاية المحاذير .

فالآية إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن يجيئهم منذر منهم ، ورجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم ، وعدالته وأمانته وصدقه ونصحه ، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان به ، لا أن يعجبوا ويستهزئوا .

والآية أيضا إنكار لتعجبهم من البعث يوم القيامة مع علمهم بقدرة الله على خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ،

ومع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء فى الآخرة ، ومعنى الإنكار هنا مستفاد من « بل » بمعونة المقام .

وفى قوله تعالى حكاية عنهم : أئذا متنا وكنا ترابا » استفهام إنكارى تكذيبى أى لا يكون ذلك البعث ، فهو — فى معتقدهم الباطل — مستبعد مستنكر .

وهم يبالغون فى الإنكار بافتتاح كلامهم باستفهام إنكارى ، ولذلك عبر عن عظيم إستبعادهم لهذا الأمر حين آثر التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد فى قوله « ذلك رجع بعيد » أى أن خبر البعث بعد الموت ، ورجوعنا إلى الحياة مرة أخرى مستبعد جدا ، لأنه لا يمكن تمييز ترابنا من بقية التراب .

ولما كان السياق لإحاطة العلم بما نعلم وما لا نعلم ، توقع السامع الجواب الشافى للرد على هذا الجهل ، فجاءت الآية التالية مصدرة بحرف التحقيق « قد » وبضمير العظمة ، لأن المقام يقتضى ذلك ، وبهذا الأسلوب القوى المؤثر يرد عليهم إنكارهم أى : نحن على ذلك فى غاية القدرة ، لأننا قد علمنا بما لنا من العظمة ما تنقص الأرض منهم أى من أجزائهم المتحللة من أبدانهم بعد الموت ، فلا يغيب عنا شىء حتى تتعذر الإعادة ، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تأكل الأرض من أجسادهم كان قادراً على رجعهم أحياء كما كانوا فى الدنيا ، بما له من عظمة القيومية والخبرة النافذة فى الظواهر والبواطن ، والحفظ الذى لا يتطرق إليه هى ولا نسيان ولا غفلة .

وفى قوله « تنقص الأرض منهم » تصوير للأرض ووصفها بصفات الكائن الحى ، فالأرض لا تأكل الأجساد حقيقة ، وإنما شبهت بمن يتأتى منه الأكل من الكائنات الحية الآكلة للأجساد ، ثم حذف المشبه به ، ورُمِزَ إليه بلازم من لوازمه وهو « تنقص » .

وإثبات هذا الفعل المشبه وهو الأرض قرينة الاستعارة المكنية .

وفى هذا تشخيص للأرض بخلع مظاهر الحياة عليها ، ووصفها بصفات الأحياء .

وأما سر التعبير بالجار والمجرور « منهم » فهو أن الأرض لا تأكل عجب الذنب ، فإنه كالبذر لأجسام بنى آدم .

وفى الحديث الشريف : « كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب (١) » .

وفى قوله « وعندنا كتاب حفيظ » تأكيد للعلم بتفاصيل الأشياء ، وقد أشار بنون العظمة إلى غناه عن الكتاب أى : وعندنا على مالنا من الجلال والغنى عن كل شىء « كتاب حفيظ » جامع لكل شىء ، بالغ فى الحفظ ، لا يضيع منه شىء دقّ أو جلّ فكيف يستبعدون على عظمتنا أن نقدر على تمييز ترابهم من تراب الأرض .

وفى قوله « فهم فى أمر مريج » مجاز عقلى بإسناد المرج إلى الأمر ، وهو فى الحقيقة لصاحب الأمر « فهو من قبيل وصف الشىء بوصف صاحبه ، وهم الكفار الذين أنكروا البعث والنشور ، وفائدة هذا المجاز الإيجازُ والمبالغةُ فى تصوير أضطرابهم ، وأنه قد بلغ الغاية فى بابه .

المعنى العام للآيات :

تدور هذه السورة حول محور واحد هو « البعث والنشور » وهو أصل من أصول الدين التى يجب على الخلق معرفتها والإيمان بها .

وقد عالجه القرآن الكريم فى كثير من المواضع بأسلوب رائع مؤثر

---

(١) صحيح البخارى : تفسير سورة ص ٧٨ . وصحيح مسلم : كتاب الفتن ص ٩١ ، ٩٢ وسنن ابن ماجة : الزهد ص ٣٢ .

يأخذ بمجامع النفوس ، ويهز أوتار القلوب،فهو يخاطب فى الإنسان عقله وعاطفته فى آن واحد ، فيصل إلى إقناع العقل وإمتاع العاطفة على حد سواء ، وتلك ميزة عظيمة تحسب للقرآن الكريم ، ونحن نفتقدها فى كلام البشر إلى حد كبير .

لقد كانت قضية البعث للحساب والجزاء من أعجب العجب على عقول الكافرين وقد صور القرآن الكريم ذلك فى أكثر من موضع ، وأشار إلى إستهزائهم بالرسول عند سماعهم خبر البعث .

قال تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم » (١) .

وقال : أئذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة » (٢) .

وقال: « وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون »(٣)

وقال : « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً » .

فهم ينكرون البعث يوم القيامة ؛ بل يقسمون بالله على نفيه ، قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٤) .

ولذلك يأتى خبر البعث مؤكداً بشتى وجوه التوكيد دفعاً للانكار .

وقد استدل القرآن على البعث بأدلة واضحة سلسة ، يفهمها الخاصة والعامة ، فلم يسلك مسلك المتكلمين فى الجدل المنطق ، بما يكتنفه من غموض وابهام بل آثر الوضوح واختار أيسر الطرق إلى قلوبهم ليوقظها

---

(١) يس ٧٨ .
(٢) النازعات ١١ ، ١٢ .
(٣) الواقعة ٤٧ .
(٤) النحل ٣٨ .

من سباتها ، ويكشف عنها رداء الغفلة ، ويدفع عنها غوائل الهوى ، فلا يجد الإنسان مناصاً من الاعتراف بالحق والركون إليه .

وأمر البعث معلوم عند كل عاقل ، أصغى لنداء الحق ، وجاهد هواه وشيطانه ، وحكمته أنه لايجوز عقلا أن يأمر الملك عبيده بشيء ، ثم يهملهم فلا يسألهم ، ولاسيما إن اختلفوا ، ولاسيما إن أدى إختلافهم إلى المقاطعة والمقاتلة ، فكيف إن كان حاكما ، فكيف إذا كان حكيما ، فكيف وهو أحكم الحاكمين ؟!

فثبت أنه لابد من دار جزاء ، يحاسب فيها العباد بما فعلوا في دنياهم ، لئلا يكون تكليف الحكم عبثا ، قال تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » (١) فالبعث حق لا محالة .

وفي هذه الآيات يقسم الله سبحانه وتعالى بالقرآن المجيد تعظيما لشأن كتابه وتوكيداً للبعث والجزاء يوم القيامة ، وهو الأمر الذي أنكره المشركون واستبعدوه على الرغم من علمهم بقدرة الله على خلق السماوات والأرض وما بينهما واقرارهم بالنشأة الأولى ، ومع شهادة العقل بأنه لابد من الجزاء في الآخرة . للفصل بين العباد بالعدل .

ثم أضرب عن جواب القسم إلى توبيخ الكفار بالبعث فقال : بل عجبوا من أن جاءهم منذر منهم ينذرهم بالعذاب عند البعث الذي هو محط الحكمة ، فهم يتعجبون مما ليس بعجب في حقيقة الأمر ، وهو كون الرسول منهم أي بشراً مثلهم ، مع أن هذا هو الوضع الأمثل الذي تقتضيه مصلحة الرسالة ، وتتقبله الفطرة السليمة ، قال تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون »(٢) .

---

(١) المؤمنون ١١٥ . (٢) الأنعام ٩ .

لقد خالفوا عادة الناس فى تعجبهم من كون النذير واحداً منهم ، خص بالرسالة دونهم فأنكروا رسالته وفضل كتابه نفاسة وحسداً ، لأنهم كانوا معترفين بخصائصه التى رفعه الله بها عليهم قبل الرسالة . فنزل بهم عجبهم إلى الحضيض من دركات السفه وخفة الأحلام ، فقد عجبوا أن كان الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً ، وعجبوا أن يعادوا من تراب ثبتت له الحياة ، ولم يعجبوا أن ابتدئوا من تراب لم يكن له أصل فى الحياة .

وكما عجبوا من الرسالة عجبوا أيضا من البعث الذى أنذرهم به الرسول ﷺ وقالوا : أئذا متنا ففارقت أرواحنا أشباحنا وصرنا ترابا لا فرق بينه وبين تراب الأرض نرجع إلى الحياة مرة أخرى ؟ فهذا إنكار للبعث أى : لا يكون ذلك الرجع والرد فهو — فى اعتقادهم الباطل — مستبعد مستنكر والسبب فى هـذا الاستبعاد هو تمزق أبدان الموتى ، وتوزع أعضائهم وصيرورتها ترابا ، واختلاطها بتراب الأرض . فرد الله عليهم بقوله « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » فهو يعلم ما تأكل الأرض من أعضائهم ولحومهم ودمائهم ، وكل ذلك مسجل فى كتاب حفيظ فلا صعوبة فى البعث أمام قدرة الله وعلمه الواسع .

إن استبعاد البعث إنما نشأ من استبعاد إحاطة العلم بتفاصيل أجزاء كل واحد من الموتى ، وتمييز أجزاء كل واحد منهم عن أجزاء الآخرين . فأزال هذا المنشأ ببيان أنه تعالى عالم بتفاصيل ذلك قادر على الجمع والتأليف فليس الرجوع منه ببعيد .

ثم أضرب إضرابا آخر بعد الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أشنع من تعجبهم حين كذبوا بالنبوة الثابتة بالمعجزات من غير تفكر ولا تدبر ، فاختلفوا فى أقوالهم ، وتباينت مذاهبهم ، وتفرقت بهم السبل ، فاتهموا الرسول تارة بالجنون وتارة بالسحر وتارة بالشعر وتارة

بالكرامة ، وهذه نتيجة مفارقة الحق والتكذيب به ، فالحق شيء واحد فمن خالفه تتناوشته الأهواء واختلفت به السبل .

لقد اختلفوا فى حقائق ثابتة بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة ، وكذبوا بالرسالة وأنكروا البعث والجزاء ، وكذبوا بالقرآن . وقالوا إنه سحر وشعر ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »(١) .

وهذا كله من قبيل العناد والمكابرة ، والتمادى فى الضلال واتباع الهوى ولو أنصف هؤلاء لتخلصوا من عنادهم وضلالهم ، وانتفعوا بعقولهم فى التفكير والتأمل فى آيات الله الكونية ، وما تنطوى عليه من عبر وعظات ، ودلائل باهرات تقودهم إلى الاعتراف بالحق والركون إليه ، وترك اللجاجة والمكابرة .

---

(١) الفرقان ٥ .

« الآيات »

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج »

المفردات والتراكيب :

أفلم ينظروا : الهمزة للاستفهام ، والفاء عاطفة على محذوف تقديره : أعموا فلم ينظروا بعين البصيرة حين كفروا بالبعث .

بنيناها : رفعناها بغير عمد . وزيناها أى بالنجوم والكواكب الصغار والكبار . السيارة والثابتـــة ، قال تعالى : « إنا زينا السما. الدنيا بزينة الكواكب »(١) وقال تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين »(٢) .

وما لها من فروج :

فروج : جمع فرج ، وهو الشق . أى أنهـا ملساء سليمة من العيوب متلاصقـة الأجزاء لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل . قال تعالى : « الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور »(٣) .

مددناها : أى بسطناها ومهدناها ، للاستقرار عليها .

---

(١) الصافات ٦ .
(٢) الملك ٥ .
(٣) الملك ٣ .

وألقينا فيها رواسى : أى جبـــالا ثوابت تحفظ توازنها وتمنعها من الإضطراب والميـل ، كما قال تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم »(١) .

زوج بهيج : صنف حسن يبهج ويسر الناظرين إليه .

تبصرة وذكرى : أى فعلنا ذلك تبصرة وذكرى ، لندل به على كمال قدرتنا .

وقيل : إن النصب على المصدرية . أى . جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيها على قدرتنا وتذكيراً لـكل عبد منيب : راجع إلى الله متفكر فى بدائع خلقه .

وقرىء : تبصرة وذكرى — بالرفع — : أى خلقها تبصرة وذكرى فيكون خبر مبتدأ محذوف .

ماء مباركا : كثير البركة والنفع ، إذ به يكون النبـــات وحصول الأقوات وبه حياة كل شىء ، فهو من الآيات الباهرة .

حب الحصيد : أى حب الزرع الذى من شـأنه أن يحصد ، ويرى الكوفيون أنه من باب إضافة الشىء إلى نفسه كما يقال : مسجد الجامع وربيع الأول وحق اليقين وحبل الوريد ونحو ذلك ، والأصل : الحب الحصيد ، فحذفت الألف واللام ، وأضيف الموصوف إلى النعت .

والأرجح هو أن يكون التقدير : حب الزرع الحصيد ، فيكون من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، بناء على أن الحب لا يحصد ،

---

(١) النحل ١٥ .

وإنما يحصد النبت الذى فيه الحب ، وهو مايقتات به من الحنطة والشعير وغيرهما .

باسقات : طوالا مستويات ، وقيل : بسوقها : استقامتها فى الطول وقال الحسن وعكرمة والفراء: باسقات أى مواقير حوامل ، ومنه : بسقت الشاة إذا ولدت(١) ، قال الشاعر :

فلمـــا تركنا الدار ظلت منيفة
بقران فيه الباسقات المواقر

والرأى الأول أكثر وأشهر فى اللغة . يقال : بسق النخل بسوقا إذا طال .

قال الشاعر :

لنـــا خمر وليست خمـر كرم
ولكن من نتاج الباسـقات
كرام فى السماء ذهبن طولا
وفات ثمارهـا أيدى الجناة

ويقال : بسق فلان على أصحابه أى طال عليهم وعلاهم فى الفضل والكرم .

والنخل . منصوب بالعطف على السابق . أى : فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل . وباسقات : منصوب على الحال من النخل ، وهى حال مقدرة ، لأنها وقت الإنبات لم تكن طوالا .

---

(١) يقول الجوهرى : أبسقت الشاة إذا حملت ، وأبسقت الناقة إذا وقع فى ضرعها اللبأ قبل اللبن، فهى مبسق ونوق مباسيق ، الصحاح (بسق).

لها طلع نضيد : الطلع هو أول مايخرج من ثمر النخل . يقال : طلع الطلع طلوعاً وأطلعت النخلة ، وطلعها : كفراها قبل أن ينشق .

نضيد : متراكم بعضه على بعض ، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد، والمراد : كثرة الطلع وتراكمه ، أو كثرة مافيه من الثمر(١) ، فهو فعيل بمعنى مفعول .

ويجوز أن تكون هذه الجملة « لها طلع نضيد » حالا من النخل ، وأن تكون حالا من الضمير فى باسقات .

رزقا للعباد : الرزق : ماكان مهيأ للإنتفاع به ، وهو منصوب على المصدرية أى : رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ، لأن الانبات فى معنى الرزق ، أو على أنه مفعول لأجله ، أى : أنبتناها لرزقهم .

بلدة ميتا : أرضاً مجدبة ، لازرع فيها ولا كلأ ، وقال : ميتاً على معنى المكان .

كذلك الخروج : كما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يخرجكم من قبوركم ويبعثكم للحساب .

والكاف فى « كذلك » فى محل رفع على الإبتداء ، والخروج خبره ، ويصح العكس .

---

(١) الكشاف ٤/٥ .

أسرار بلاغية :

فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا ... » استفهام إنكارى توبيخى لهؤلاء الذين أنكروا البعث وكذبوا بالرسالة من غير تفكر وتدبر ، فهو ينكر عليهم تركهم النظر والاستدلال بهذه الآيات الباهرة فى كتاب الكون على عظيم قدرته ، ليحملهم ذلك على التسليم بوقوع البعث والاعتراف بصحة الرسالة .

وإنما قال « إلى السماء » ولم يقل «فى السماء» للدلالة على أن مجرد انتهاء النظر إليها كاف فى إزالة استبعادهم . فإن النظر فى الشىء ينبىء عن التأمل واستقصاء النظر فيه . بخلاف النظر إليه فإنه لا ينبىء عنه ، وإنما يدل على مجرد انتهاء النظر إليه .

إن الإنسان يرى المظاهر الكونية كالسماء والأرض فتبهره بنظامها البديع ولكن إلف الإنسان لهذه الأشياء على الرغم من أهميتها القصوى يفقده القدرة على أن يتجاوز النظر إلى التأمل والتفكر . فتنبيه الإنسان إلى أهمية بعض مظاهر الكون كالسماء والأرض مع وضوحها بالنسبة له من شأنه أن يزيل الصدأ الذى ران على قلبه وفكره ووجدانه بحكم إلفه لهذه الأشياء واعتياده عليها . وكأن التنبيه إلى هذه المظاهر الكونية يعيدها جديدة إلى أذهانهم ، وفى ذلك شحذ للفكر وإيقاظ للقلب وتحريك للوجدان .

بعد ذلك يأتى التنبيه على عظيم قدرة الله وبديع صنعه بآية الأرض ، وقد أخرها عن السماء فى الذكر ، لأن السماء أدلّ على المجد الذى هذا سياقه لأنها أعجب صنعة ، وأعلى شأنا ، وأعظم أثراً .

ثم إن الإنسان يألف الأرض بصفة ظاهرة لكثرة ملابستها والحركة

على ظهرها ، والاجتناء من ثمارها ، ولذلك فإنه يغفل عن دلالتها على الصانع وما يتصف به من صفات الكمال . ولذلك قدم ذكر السماء على الأرض فى هذا السياق .

وتمداد مشاهد القدرة فى رفع السماء بلا عمد ودحو الأرض وبسطها وإلقاء الرواسى وإنزال الماء وما يترتب عليه من منافع للعباد ، وإحياء الأرض الميتة وقياس المعاد عليها ، من أقوى الدلائل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

ولذلك نرى أفعال الخلق والإيجاد والاعدام وأشباهها جارية على تفخيم الاسناد فهذه الأفعال هى مظاهر القدرة العظيمة التى هى من صفات العظيم ، فمن حقها أن تسند إلى ضمير العظمة والفخامة :

وهذا يفسر لنا سر التعبير بضمير العظمة فى قوله تعالى : « كيف بنيناها وزيناها » وفى قوله « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » وفى قوله « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » وفى قوله « وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » فالمقام هنا يقتضى التعبير بضمير الجمع ، وهذا الأسلوب أثره الذى يستقر فى أعماق الوجدان من قلب المتدبر لآيات الله .

وفى قوله « من كل زوج بهيج » وصف « زوج » بأنه « بهيج » أى هو فى غاية الرونق والاعجاب يسر الناظر إليه ، فكان مع كونه رزقا للعباد متنزها للأبصار .

ولما ذكر هذه الآيات العظيمة والصنائع الباهرة علمها بقوله : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، أى : جعلنا هذه الأشياء كلها لتنظروها بأبصاركم وتتفكروا ببصائركم ، فتعتبروا بها ، وتتوصلوا منها إلى صانعها سبحانه ، فتعلموا عظمته .

وكذلك جعلناها «ذكرى» لتتذكروا بها، فتعلموا بعجزكم عن إيجاد شيء منها أن صانعها لا يعجزه شيء، وأنه محيط بجميع صفات الكمال ولولا ذلك لما أبدع هذا الكون المتناسق العجيب.

والفرق بين التبصرة والتذكرة أن في الأولى آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر، وفي الثانية آيات متجددة مذكرة عند التذكر.

وإنما قيد العبد بكونه منيبا. وجعل هذه الآثار تبصرة لعباده المخلصين لأن الاستبصار بخلقها يختص بهم. قال تعالى: «إنما يتذكر أولوا الألباب».

ثم قال: «رزقا للعباد» فأطلق هنا. لأن الخلائق كلهم مرزوقون بما يترتب على إنزال الماء المبارك من السماء. ولا يختص الرزق بعبد دون عبد، فالله سبحانه وتعالى يرزق المؤمن والكافر. غير أن المنيب يأكل ذاكراً شاكراً وغير المنيب يأكل كما تأكل الأنعام.

ثم أفرد النخل بالذكر في قوله «والنخل باسقات» لفرط ارتفاعها، وكثرة منافعها، بالتفكه على عدة أنواع والاقتيات، فثمارها فاكهة وقوت.

ومن روائع النظم في تلك السورة الكريمة أنه سبحانه وتعالى ذكر في السماء ثلاثة: البناء والتزيين وفي الفروج، وفي الأرض ثلاثة: المد وإلقاء الروامي والإنبات. قابل المد بالبناء، لأن المد وضع والبناء رفع. وإلقاء الروامي بالتزيين بالكواكب، كما قابل الإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا شق فيها، كما يقول أبو حيان.

وفي قوله: «وأحيينا به بلدة ميتا» استعار الإحياء للاخضاب لأن

الإحياء فى الحقيقة إعطاء الحياة . وهى صفة تقتضى الحس والحركة الإرادية، وتفتقر إلى البدن والروح فاستعير هنا لإخصاب الأرض ، بمعنى تهييج القوى النامية فيها ، وإحداث نضارتها بأنواع النبات . ثم اشتق من الاحياء « أحيينا » بمعنى « أخصبنا » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفى قوله : « ميتا » استعارة تصريحية تبعية ، حيث استعير هذا اللفظ للأرض الجدباء التى لا زرع فيها ولا كلأ ، ولا حركة ولا نمو ، فهى قفر خالية من كل مظاهر الخصوبة والازدهار .

واللفظ المستعار « ميتا » أقوى فى التأثير وأبلغ فى البيان من الحقيقة « جدباء » أو « قواء »

فالاستعارة فى الآية الكريمة أبلغ من الحقيقة .

وفى قوله بلدة ميتا ، نلاحظ أنه ألحق التاء بها إشارة إلى أنها فى غاية الضعف والحاجة إلى النبات فهى خالية من كل مظاهر الحياة.

ثم قال « ميتا » للزيادة فى تقرير تمكن الحاجة فيها ، ثم رتب عليه قوله « كذلك الخروج » على سبيل النتيجة أى مثل هذا الإخراج العظيم الخروج وهو بعث الموتى من قبورهم على ما كانوا عليه فى الدنيا .

وهنا تشبيه حيث شبه إحياء الموتى وخروجهم من القبور للحساب بإحياء الأرض الميتة بالمطر ، والغرض منه بيان إمكان البعث بقياس إحياء الموتى على إحياء الأرض الميتة . وهذه الأرض الميتة كانت هامدة فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف فى حسنها ، وبعد أن كانت مجدبة خالية أصبحت تهتز خضراء فهذا مثال للبعث بعد الموت ، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيى الله الموتى .

وهذا التصوير شائع فى القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون »(١) .

وقوله : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير »(٢)

وقول : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها أن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير »(٣) .

وقوله تعالى : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور »(٤)

وقوله تعالى : والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتـــا كذلك تخرجون »(٥)

المعنى العام للآيات:

يوجه الله سبحانه وتعالى أنظارهم إلى بديع صنعه وعجيب قدرته فى الكون فيقول أفلم ينظروا إلى آثار قدرته الباهرة فيتفكروا كيف بنينا السماء ورفعناها بلا عمد وزيناها بالكواكب وجعلناها سماء لاعيب فيها ولا خلل .

وكذلك مددنا الأرض وألقينا فيها جبالا رواسى تحفظ توازنها وتمنعها

---

(١) الروم ١٩ .
(٢) فصلت ٣٩ .
(٣) الروم ٥٠ .
(٤) فاطر ٩ .
(٥) الزخرف ١١ .

من الاضطراب والميل أو الانحراف عن موضعها فى الكون، وبذلك صارت صالحة لاستقرار الخلق على ظهرها، والسعى فى مناكبها، كما أنبتنا فيها النبات من كل صنف حسن يسر الناظرين إليه، وجعلنا ذلك تبصرة وتذكرة لكل عبد متفكر فى بدائع صنع الله وعجيب خلقه، فيهديه تفكيره إلى أن البعث أهون شىء على الله فيرجع إليه ويسلم قياده له.

وكذلك نزلنا من السماء ماء كثير المنافع والخيرات، فأنبتنا به البساتين الناضرة والأشجار المثمرة والحب الذى يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما.

وأنبتنا النخل طوالا مستويات لها طلع منضود بعضه على بعض، ليكون ذلك رزقاً للخلق لينتفعوا به. وأحيينا بذلك الماء أرضاً جدبة، لازرع فيها ولا كلأ. فدبت فيها الحياة والنماء، وأصبحت تهتز خضراء، وجادت بأصناف الزروع والثمار، وفى ذلك مافيه من دلائل القدرة العظيمة التى لا يعجزها شىء.

فإحياء الموتى وخروجهم من القبور يوم البعث كإحياء الأرض الميتة وخروج النبات منها وازدهارها بالزروع والثمار، فهل يعتبرون ويتفكرون؟

وهكذا تحدثت الآيات السابقة عن كمال قدرة الله، ومظاهر العظمة فى صنع الله بأسلوب معجز يملأ النفوس رغبة ورهبة، ويبدد ظلمات الشك والحيرة. ويقود مسيرة الخلق إلى شاطىء النجاة، إنه يوجه أنظار الكفار الذين أنكروا البعث والنشور إلى التأمل فى بدائع خلق الله فى السماء المحكمة البناء الخالية من العيوب والفروج، المزينة بالنجوم والكواكب وفى الأرض الممهدة المبسوطة، والمثبتة بالجبال الرواسى، والحافلة بشتى ألوان النبات والثمار، والحدائق والأشجار، وكلها تنمو بالماء النازل من السماء، ليكون سببا للحياة والخصوبة والازدهار فى ربوع الأرض.

فى السماء والأرض آيات وعبر تدل على أن الله الذى خلق هذه الكائنات ، وأوجد هذه المخلوقات العجيبة قادر على إعادة الخلق بعد موتهم وإخراجهم من القبور : ومحاسبتهم على ما اقترفوه من أوزار ، ولكنهم ينصرفون عن هذه الآيات الباهرة والأدلة الواضحة عناداً ومكابرة .

وصدق الله إذ يقول فى محكم كتابه : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير »(١)

---

(١) الأحقاف ٣٣ .

الآيات

قال تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد »

المفردات والتراكيب :

أصحاب الرس : هم قوم كانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم نبياً فكذبوه فبينما هم حول الرس — أى البئر غير المطوية — انهارت ، فخسفت بهم وبديارهم .

وقيل . إنهم كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر أى ألقوه فيها حتى مات .

ثمود : هم قوم صالح — عليه السلام — كذبوه وعقروا الناقة فأخذهم العذاب الموعود .

وعاد : هم قوم هود — عليه السلام — كذبوه فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

وفرعون : أى قوم فرعون ، لأن المعطوف عليه قوم نوح . وهو جمع ، والمعطوفات جماعات .

وإخوان لوط : هم قوم لوط ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتلك عادة ذميمة يقزع عنها الحيوان الأعجم ، وقد نهاهم لوط عن ذلك ، فلم ينتهوا ، فأهلكهم الله بالخسف ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ليكونوا عبرة لسائر الأمم من بعدهم . وسماهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره من حيث إنه تزوج منهم .

وقيل : إن لوطا عليه السلام كان مرسلا إلى طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام وهم معارف لوط .

وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب عليه السلام . قال الطبرى: والأيكة: الشجر الكثير الملتف ، وهم أهل مدين(١) ، نسبوا إلى الأيكة حيث كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة الملتف بعضها على بعض .

قال تعالى فى شأنهم : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط»(٢) .

وقال تعالى : « كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين »(٣) فكذبوه واستهزأوا به . « قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم»(٤) ، وتحقق وعد الله، فنجا شعيب ومن معه من المؤمنين وأهلكهم الله بالصيحة ، قال تعالى : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين»(٥) .

تبع : قال المفسرون هو ملك كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام

---

(١) تفسير الطبرى ١٩/٦٥ .

(٢) هود ٨٤ .

(٣) الشعراء ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٤) الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٥) هود ٩٤.

فكذبوه ، وهو تبع اليمانى(١) ، وعندئذ حل بهم العذاب كما حل بالأمم السالفة .

كل كذب الرسل : يجوز أن يكون المراد : كل واحد منهم ، أو كل قوم كذبوا الرسل وأن يراد جميعهم أى كلهم كذب الرسل ، وإنما وحد الضمير الراجع إليه فى « كذب » مراعاة للفظ دون المعنى ، والمراد بكل الأكثر أو الغالب .

فإن كان تقدير الكلام : كل واحد منهم ، أو كل قوم كذبوا الرسل ، فالظاهر أن اللام فى «الرسل» لتعريف الجنس ، أى كل واحد منهم كذب جميع الرسل بناء على أن من كذب رسولا لكونه منكرا للرسالة والبعث فقد كذب جميع الرسل .

وإن كان تقدير الكلام : كلهم كذبوا الرسل ، فيجوز أن تكون اللام فى الرسل لتعريف العهد ، والمعنى : كل واحد منهم كذب رسوله ، وجميعهم كذبوا الرسل ، وأن يكون لتعريف الجنس والمعنى : كل واحد منهم كذب جميع الرسل .

فحق وعيد : فوجب وحل وعيدى وعقابى ، وهو ما استحقوه بكفرهم وضلالهم .

أفعيينا : الهمزة للاستفهام الانكارى ، والفاء عاطف على محذوف تقديره : أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى نعجز عن الثانى الذى هو البعث .

يقال : عى بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله . أى لم نعى ولم نعجز عن الخلق الأول .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٩١ .

« بل هم فى لبس من خلق جديد » : أى هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم فى حيرة وخلط وشبهة من البعث والنشور ، واللبس هو الخلط يقال : التبس عليه الأمر أى أشكل . ولبست عليه الأمر : مزجت حقه بباطله، فاختلط عليه . قال تعالى: «وللبسنا عليهم ما يلبسون»(١).

ومنه قول الإمام على كرم الله وجهه للحارث بن حوط : « ياحار إنه لملبوس عليك ، وإن الأمر لا يعرف بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله .

وتقول الخنساء .

ترى الجليس يقول الحق تحسبه
رشدا وهيهات فانظر ما به التبسا
صدق مقالته واحذر عداوته
والبس عليه أموراً مثل ما لبسا

أسرار بلاغية :

فى قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » الآيات أسلوب خبرى الغرض منه تسلية النبى ﷺ وتهديد مكذبيه ، حتى يأخذوا العبرة من مصارع الأمم السابقة ، وفى تاريخ البشر عظات وعبر .

وقوله « وعاد وفرعون وإخوان لوط » فيه إيجاز بالحذف أى وقوم فرعون ، لأن المعطوف عليه جمع . وقد نص عليه ، لأنه ليس فى قادة هذه الفرق كافر غيره ويفهم من ذلك عظمته وجبروته وأنه ملك قاهر طاغية حيث استخف قومه فأطاعوه كما يذكر القرآن الكريم فى سورة الزخرف « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين »(٢) ، فيعلم كفرهم بطاعته .

---

(١) الأنعام ٩ .   (٢) الزخرف ٥٤ .

والتعبير بالأخوة فى قوله « وإخوان لوط » أبلغ من القوم ، لمناسبته المقام ، لأن السياق لتكذيب من هو منهم ، لأنه أدخل فى التسلية والتثبيت لقلبه ﷺ .

وقد عبر بالمفرد فى قوله « وأصحاب الأيكة » والمراد الجمع إشارة إلى أنها من شدة التفافها ، وتكاثف أوراقها كالشجرة الواحدة .

وفى قوله « كل كذب الرسل فحق وعيد » إيجاز بالحذف ، أى كل واحد منهم أو كلهم ، فحذف المضاف إليه ، والتنوين عوض عنه .

وأرى فى هذا الحذف حسناً ومزية لا توجد فى الذكر ، فهو يشير إلى كراهية المكذبين وقبح مسلكهم ، والرغبة عن التصريح بهم مرة أخرى ، وفى ذلك تنفير من سلوك طريقهم وتحذير من مغبة التكذيب وعاقبته الأليمة .

وفى قوله : « أفعيينا بالخلق الأول » أسلوب إنشائى ، فهو استفهام خارج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى هو الإنكار والتكذيب أى لم نعى ولم نعجز عن الخلق الأول ، فلا نعجز عن الخلق الثانى الذى هو البعث .

وقد عبر بضمير العظمة والفخامة هنا ، لأن مقام الخلق والإيجاد يناسبه تفخيم الإسناد ، فهو مظهر من مظاهر القدرة العظيمة ، وهى من صفات العظيم سبحانه .

وتعريف « الخلق الأول » فى الآية يفيد التعظيم ، لأنه يعرف به كل أحد ولأن الغرض جعله دليلا على إمكان الخلق الثانى بطريق الأولى ، أى إذا لم يعى الله تعالى بالخلق الأول على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيا به .

وأما تنكير « لبس » فهو للتعظيم والتفخيم كأنه قيل : فى لبس أى لبس

من حيث إن الشيطان لبس عليهم وأوقعهم فى حيرة واشتباه حين وسوس إليهم أن إحياء الأجساد البالية والعظام النخرة خارج عن الوهم والعادة والإمكان .

وأما تنكير الخلق الثانى فى الآية ، فهو لتعظيم شأنه ، والإشعار بأنه من الأمور العظائم أى مما لا سبيل إلى تعريفه ، والتعبير عنه بما يشير إليه بخصوصه .

يقول الزمخشرى : « قصد من تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديدة حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ويبحث عنه ، ولا يقعد على لبس فى مثله »(١) .

المعنى العام للآيات :

فى الآيات السابقة وجه الحق تبارك وتعالى أنظارهم إلى بديع صنعه وعجيب قدرته فى خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وهى أدلة شاهدة بوحدانيته وقدرته على البعث والجزاء . وفى هذه الآيات إشارة إلى بعض شواهد التاريخ البشرى وهى تنبىء عن سنة الله فى خلقه ، فالجزاء من جنس العمل دائما ، ولهذا كان مآل المكذبين من الأمم السابقة الهلاك والدمار بما كسبت أيديهم .

فى هذه الآيات تسلية للنبى ﷺ ، وتهديد لمكذبيه من مشركى مكة ، أى : كما كذب بك هؤلاء فقد كذب أولئك ، فحل بهم العذاب ، وفى هذا تحذير للكافرين من أن يحل بهم ما حل بالأمم السابقة ، ودعوة إلى التفكر فى مصير المكذبين السابقين ، كما قال تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »(٢) .

---

(١) الكشاف ٤/٥ .

(٢) آل عمران ١٣٧ .

وقال أيضا : «أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»(١) .

كما أن هذه الآيات ترشد النبى — ﷺ إلى التأسى بإخوانه الأنبياء الذين كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم النصر من عند الله ، فلا بد من التحلى بالصبر فى انتظار وعد الله ، كما قال تعالى : «ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين»(٢) .

وقال تعالى: «ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين»(٣) .

وقال تعالى : «وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور»(٤) .

وفى ذلك ما فيه من العظمة والعبرة ، والبشرى للمؤمنين الصادقين ، والتحذير للكافرين المعاندين .

وبعد أن طافت الآيات بهم فى المظاهر الكونية من سماء وأرض وجنات وزرع وما تنطوى عليه من دلالة على العظمة والكمال ليستدلوا بها على قدرته على البعث شرع فى تقرير دلائل الأنفس بعد تقرير دلائل الآفاق ، فسألهم على سبيل الإنكار والتكذيب: «أفعيينا بالخلق الأول» أى: أنا لم نعى ولم نعجز عن الخلق الأول . وهم يعترفون بذلك ، لأن الخلق الأول شاهد حاضر يعرفه كل إنسان . واعترافهم بذلك فى طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة ، فنحن قادرون عليها ، ولكنهم فى حيرة وخلط وشبهة ، فقد لبس

---

(١) الروم ٩ .
(٢) الأنعام ٣٤ .
(٣) الروم ٤٩ .
(٤) فاطر ٤ .

عليهم الشيطان . وحيرهم فسول إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة فتركوا لذلك القياس الصحيح ، وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر»(١) .

ومن يعترف بالخلق الأول يلزمه الاعتراف بالثانى بطريق الأولى، لأن إعادة العمل أسهل من ابتدائه . قال تعالى: «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»(٢) مع أن الأعمال كلها سواء فى حقه عز وجل. ولكنهم ينكرون البعث مع الاعتراف بالخلق الأول ، وهذا راجع إلى اللبس والحيرة والخلط وعدم التدبر فى آيات الله عز وجل . ولو حكموا عقولهم بإنصاف ، لانتهوا بالضرورة إلى أن الذى خلقهم أول مرة قادر على أن يعيد الحياة إليهم إذا ماتوا وصاروا ترابا، لكنه العناد والمكابرة .

* * *

(١) الكشاف ٤/٥ . (٢) الروم ٢٧ .

الآيات

قال تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» .

المفردات والتراكيب :

الإنسان : أى جنس الإنسان . وقيل : آدم — عليه السلام ، والذى وسوست به نفسه الأكل من الشجرة ، ثم هو عام لولده من بعده .

الوسوسة : حديث النفس بمنزلة الكلام الخفى .

« ونعلم ما توسوس به نفسه » : أى ما يختلج فى سره وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى يستخفى بها ، وتخويف منها .

والباء فى « به » مثلها فى قولنا : صوت بكذا ، وهمس به ، ويجوز أن تكون البـــاء للتعدية ، والضمير للإنسان ، وما مصدرية ، أى : ما تجعله موسوساً كقولهم : حدث نفسه بكذا ، وحدثته به نفسه .

حبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وهما وريدان عن يمين وشمـال ، متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه . والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه .

إذ يتلقى : إذ ظرف لما مضى من الزمان مبنى على السكون فى محل نصب بأقرب .

ويتلقى : أى يتلقن ويأخذ ، وجملة « يتلقى المتلقيان » فى محل جر بإضافة « إذ » إليها .

المتلقيان : هما الملكان الموكلان بالإنسان و يتلقيان عمله ، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات . قال الحسن : حتى إذا مت طويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة : « إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »(١) عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك .

قعيد : فعيل بمعنى فاعل ، أى : قاعد كالسميع والعليم والقدير . وقيل: هو بمعنى مفاعل أى مقاعد . مثل : أكيل ونديم وجليس ، بمعنى مؤاكل ومنادم ومجالس ، والمراد بالقعيد هنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

وإنما قال « قعيد » ولم يقل «قعيدان» وهما اثنان ، لأن المراد : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد . فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه ، فهو كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راض والرأى مختلف(٢)

وقول الآخر :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله
فإنى وقيار بها لغريب

أى : فإنى بها لغريب وقيار كذلك ، فحذف خبر إن من الأول لدلالة الثانى عليه .

---

(١) الإسراء ١٤ .

(٢) تقدير البيت : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه . والأفضل أن يكون الحذف من الثانى لدلالة الأول عليه .

وقيل : لا حذف فى الكلام ، لأن فعيلا يصلح للواحد ، والإثنين ، كقوله تعـــالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير »(١) ، وهو رأى الفراء والأخفش

رقيب : حافظ شاهد .

عتيد : حاضر مهيأ لكتابة ما أمر به . والعتيد : هو الشيء الحاضر المهيأ . وقد عتده تعتيداً . وأعتده إعتاداً أى : أعده ليوم .

قال تعالى : « وأعتدت لهن متكأ » ومنه فرس عتد وعتد — بفتح التاء وكسرها — أى معد للجرى . والمادة تدور حول معنى الحضور .

ومنه قول الشاعر :

لئن كنت منى فى العيان مغيبـا
فذكرك عندى فى الفؤاد عتيد

أسرار بلاغية :

فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » : إسناد الفعل إلى ضمير العظمة والفخامة فى «خلقنا» و «نعلم» وذلك لأن الخلق من شواهد القدرة التى لا تكون الا لعظيم ، لا يعجزه شيء فى الوجود . وفى الآية توكيد بالقسم المحذوف ، وجوابه «لقد خلقنا» فاللام واقعة فى جواب القسم ، وقد حرف تحقيق ، وبذلك تقرر الكلام وتوثق بالقسم وجوابه والإسناد إلى ضمير العظمة .

وإحاطة العلم أيضاً هى من لوازم القدرة ، لذلك نراها مع ضمير العظمة

---

(١) التحريم : ٤ .

فى أدق المعانى التى يلطف علمها على غير القادر العليم بخفايا الصدور سبحانه «ونعلم ما توسوس به نفسه» أى والحال أنا نعلم بما لنا من إحاطة خواطره وخلجات نفسه . فالجملة فى محل النصب على الحالية من فاعل خلقنا .

والتقدير : «ونحن نعلم» لأن المضارع المثبت لا يقع موقع الحال إلا بالضمير وحده .

وبذلك يجتمع ضمير الفخامة مع تقوى الحكم بتكرار الإسناد ، فيكتسى الأسلوب قوة وجزالة ، ليكون مطابقا لمقتضى الحال .

وفى قوله «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» تصوير لسعة علمه سبحانه وتعالى ، فالمراد قرب علمه تعالى من الإنسان ، وليس قرب المسافة ، ففيه تجوز بقرب الذات عن قرب العلم ، لاستحالة القرب المكانى على الله عز وجل(١) .

ولما كان القرب من الشىء سببا للعلم والإحاطة بأحواله ، فقد أطلق السبب وأريد المسبب ، على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته السببية والقرينة هنا تنزهه سبحانه عن الحلول والاتحاد بالإجماع .

وفى هذا المجاز إيجاز ، لأن المعنى : نحن أعلم بحاله وخلجات نفسه من كان أقرب إليه من هذا العرق ، فكأن ذاته تعالى قريبة منه ، كما يقال : الله فى كل مكان وقد جل عن الأمكنة .

---

(١) ذهب ابن كثير إلى أن المعنى : ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس .

وهذا كما قال فى المختصر : «ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون» يريد به الملائكة» مختصر ابن كثير ٢/٣٧٣ .

وفيه أيضا تصوير المسبب بصورة السبب، وفى ذلك مافيه من توضيح المعنى والمبالغة فى إثباته ، وذلك لأن العالم بالشىء كلما كان قريبا منه كان علمه به أمكن وأثبت ، فالله سبحانه أعلم بأسرار الإنسان وهواجس نفسه لا يخفى عليه شىء من خفاياه ، فهو أقرب إليه بعلمه من حبل الوريد ، لأن أجزاءه وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب علم الله شىء .

وحبل الوريد : المراد بالحبل هنا العرق، شبه العرق بالحبل ، ثم استعير اسم المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والإضافة حينئذ بيانية كما فى خاتم فضة ، لأن الحبل بمعنى العرق اسم جنس يتناول العروق كلها فأضيف إلى الوريد الذى هو نوع من أنواعه على طريق إضافة العام إلى الخاص للبيان .

ويحتمل أن يكون « حبل الوريد » من قبيل إضافة المشبه به للمشبه أى وريد كالحبل ، فهو من باب « لجين الماء » فى قول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل على لجين الماء

أى على ماء كاللجين ، وهو الفضة الذائبة ، فأضيف المشبه به إلى المشبه .

وفى تعلق الظرف « إذ » بأقرب إيذان بأن الله عز وجل غنى عن استحفاظ الملكين فإنه تعالى أعلم منهما ، ومطلع على ما يخفى عليهما ، فلا يحتاج إلى ملك يخبر ، ولكنهما وكلا بالعبد إلزاما للحجة وتوكيداً للأمر عليه ، وذلك بعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ، فإذا علم العبد ذلك مع علمه بإحاطة الله تعالى بكل أموره ازداد رغبة فى الحسنات وانتهاء عن السيئات .

وقد قدم سبحانه وتعالى الإخبار بكمال علمه وإحاطته نفيا لتوهم حاجته

إلى إستحفاظ الملكين ، فإن سبب الاستحفاظ فى عرف البشر هو خوف الغفلة والنسيان ، والله سبحانه منزه عن ذلك . وانما استحفظهما لإقامة الحجة بهما على مجارى عادات الناس .

وفى قوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » إيجاز بالحذف ، والتقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه . وهو أحد قولين فيه .

وفى « اليمين والشمال » طباق ، بذكر الشيء وضده ، وهو بحسن معنوى يزيد الكلام رونقا وبهاء ، والضد أقرب شيء خطورا بالبال عند ذكر ضده وبضدها تتميز الأشياء .

وقعيد بوزن فعيل ، وهى صيغة مبالغة ، تدل على أن هذا الملك ملازم له فى كل أحواله ، مبالغ فى مقاعدته ، يحصى أعماله ، ويسجل كل لفظ يصدر عنه .

المعنى :

فى هذه الآيات عرض آخر لقدرة الله سبحانه وتعالى ، على سبيل التذكير ببعض مظاهر هذه القدرة ، ليراجعوا عقولهم مرة أخرى ، فيرجعوا عن طريق الضلال الذى هم سائرون فيه ، بإنكار البعث واستبعاده من غير تفكير ولا تأمل .

وفى الآية الأولى إشارة إلى كمال قدرة الله وسعة علمه وحكيم تدبيره فى خلق الإنسان وهو أعجب خلقا بما فيه من الأنس والطغيان والذكر والنسيان والجهل والعرفان والطاعة والعصيان وغير ذلك من عجيب الشأن .

وإذا كان الله قد خلق الإنسان بيده ، فهو يعلم ما يجول فى قلبه

وما يخطر بباله ، ويهجس فى ضميره ، فهو عليم بخفايا النفوس ، مطلع على أسرار القلوب .

ولا غرابة فى ذلك ، فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأعلم بأسرارها وطرق صيانتها ، ولذلك كان الله أقرب إلى الإنسان بعلمه وإحاطته ، فهو قريب من العباد لا يغيب عنهم طرفة عين أينما كانوا ، نعم هو أقرب إلى الإنسان من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به ، فيسجلان كل مايقع منه ، ويحصيان حركاته وسكناته ، ليحاسب عليها يوم العرض على الله ، فهو فى رقابة صارمة لا تغفل عنه لحظة واحدة .

فاذا استحضر الإنسان رقابة الله عليه ، وعرف أنه يقضى عمره كله بصحبة ملكين موكلين به أحدهما عن يمينه وثانيها عن شماله يرصدان عنه كل صغيرة وكبيرة من أمره فإنه سيلتزم قدر طاقته بالحق ، ويحرص على طاعة الله عز وجل رغبة ورهبة .

وقد اختلف فيما يكتب الملكان ، فقيل : يكتبان كل شىء يصدر منه حتى أنينه فى المرض ، وهو قول مجاهد .

وقيل : لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به ، وقد ورد أن الملكين يجتنبان الإنسان فى حالتين : عند الغائط وعند الجماع .

قال رسول الله ﷺ : كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر ، وعنه ﷺ : « إن مقعد ملكيك على ثنيتيك ولسانك فلمهما ، وريقك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحيى من الله تعالى ولا منهما » .

الآيات

قال تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد .

المفردات والتراكيب :

سكرة الموت : شدته الذاهبة بالعقل ، وغمرته التى يصير بها المحتضر كالسكران لا يعى .

بالحق : يجوز أن تكون الباء هنا للتعدية ، والمراد بالحق حينئذ حقيقة الأمر الذى أنطق الله به كتبه وبعث به رسله ، وهو سعادة الميت أو شقاوته ، وعلى ذلك فالحق مصدر بمعنى التحقيق .

أو المراد بالحق الموعد الحق من البعث وما يترتب عليه من جزاء ، فالحق على هذا هو ما قابل الباطل .

ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة ، مثلها فى قوله تعالى : « تنبت بالدهن » (١) فإنها للمصاحبة ، أى تنبت ومعها الدهن ، أو ملتبسة بالدهن ، فالحق على هذا أيضا يجوز أن يكون بمعنى حقيقة الأمر ، أو بمعنى الموعود الحق ، أو بمعنى الحكمة والغرض الصحيح .

فالتقدير : وجاءت سكرة الموت ملتبسة بالحق ، أى بحقيقة الأمر ، أو بالحكمة والغرض الصحيح .

وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضى الله عنهما : وجاءت سكرة الحق

---

(١) المؤمنون ٢٠ .

بالموت (١) وإضافة السكرة إلى الحق للبيان ، أى أنها السكرة التى كتبت على الإنسان ، وأوجبت له .

والباء للتعدية ، لأنها سبب زهوق الروح لشدتها ، أولأن الموت يعقبها فكأنها جاءت به .

ويجوز أن يكون « الحق » على هذه القراءة هو الله تعالى ، أى سكرة الله ، أضيفت إليه تفظيعاً لشأنها وتهويلا .

ذلك ما كنت منه تحيد :

الإشارة إلى الموت ، والخطاب للإنسان فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان » فيكون التفاتا من الغيبة إلى الخطاب .

أو الإشارة إلى الحق ، والخطاب للكافر ، أو للبر والفاجر معا .

تحيد : تفر منه ، وتميل عنه ، يقال : حاد عن الشىء يحيد حيوداً وحيدة .

وحيدودة : مال عنه وعدل .

ونفخ فى الصور : المراد النفخة الأخيرة للبعث والنشور .

والصور : أداة ينفخ فيها عند كل أمر عظيم يجتمع له الناس لحرب أو نحوها .

---

(١) رويت عن أبى بكر روايتان إحداهما موافقة للمصحف، والأخرى مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه ، أو الغلط من نقل الحديث ، فقد روى أنه لما أحتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة ، فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر : هلا قلت كما قال الله : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .

قال بعض العلماء إنه صور حقيق ، وهو القرن الذى ينفخ فيه الملك إسرافيل مرة فيموت كل الناس على ظهر الأرض ، ثم ينفخ فيه أخرى فيحيون ، ثم ينفخ ثالثة ، فيجمعهم للحساب والعرض على الله . قال تعالى: « ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاءالله ثم نفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون» (١) .

وقيل : إن النفخ فى الصور كناية عن أمر الله ودعوته إلى الموتى بالخروج من قبورهم « ثم إذا دعاكم دعـــوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» (٢)

ذلك يوم الوعيد : الإشارة فى «ذلك» إلى مصدر « نفخ » أى النفخ ، والخطاب للإنسان فى قوله تعالى: « ولقد خلقنا الإنسان ... »

وقيل التقدير : وقت ذلك النفخ يوم الوعيد . وهو اليوم الذى يقع فيه ما أخبر الله به عباده فى الدنيا من الوعيد .

سائق وشهيد : هما ملـكان أحدهما يسوق الإنسان إلى المحشر والآخر يشهد عليه بعمله(٣) وقيل : إنهما ملك واحد يسوقه ويشهد عليه. كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها(٤) وقال ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل. قال تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٥) .

وعمل « معها سائق » النصب على الحال من « كل » ، لإضافته إلى ما هو فى حكم المعرفة وهو « نفس» وإنما كانت فى حكم المعرفة ،لأن « كل نفس» فى معنى كل النفوس ولذلك تأخرت الحال عنها .

---

(١) الزمر ٦٨ . (٢) الروم ٢٥ .
(٣) تفسير القرطبى ١٧/١٤ .
(٤) الكشاف ٤/٧ . (٥) النور ٢٤ .

ومعنى الآية : وجاء كل إنسان مؤمنا كان أو كافراً ، ومعه ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله .

لقد كنت فى غفلة من هذا :

الخطاب فى هـــذه الآية للإنسان ، وقرىء : « كنت » ، « عنك » « غطاءك » « فبصرك » بكسر التاء والكاف فى الجميع على خطاب النفس فى الآية السابقة .

« فى غفلة » : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً . فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر مالم يكن يبصره من الحق(١) .

« من هذا » : أى من تصور هـــذا اليوم على ماهو عليه من انقطاع الأنساب ، والجزاء بالثواب أو العقاب ، لأنه مع شدة جلائه خفى على من اتبع الشهوات .

فكشفنا عنك غطاءك : أى أزلنا عنك الحجاب الذى كان يحول بينك وبين رؤية الحق . يقول القرطبى : وفيه أوجه :

أحدها : إذا كان فى بطن أمه فولد .

الثانى : إذا كان فى القبر فنشر .

الثالث : وقت العرض يوم القيامة(٢) .

وأرجح الثلاثة هو الرأى الأخـــير ، لمناسبته للسياق فى الآيات السابقة .

---

(١) الكشاف ٤/٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٥ .

فبصرك اليوم حديد :

البصر هنا إما أن يراد به بصر العين ، وهو ظاهر الآية ، أي بصر عينك اليوم حديد أي حاد قوى نافذ يرى ما كان محجوباً عنه .

وإما أن يراد به بصر القلب ، كما يقال : هو بصير بالفقه ، فبصر القلب وبصيرته: شواهد الأفكار ونتائج الإعتبار .

أي يقال للمفرط فى الإستعداد للآخرة يوم العرض على الله : لقد كنت فى الدنيا غافلا عن حقيقة البعث والجزاء، فكشفنا عنك حجاب الغفلة بالآمال والحظوظ والشهوات ، فانكشف لك الحق، فأنت الآن تبصره واضحاً جلياً، وبذلك تقرر أمامك ما كنت تنكره فى الدنيا ، بسبب حجاب الغفلة والغرور .

أسرار بلاغية :

فى قوله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق .... » : التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى « جاءت » ، وهو من قبيل الإخراج على خلاف مقتضى الظاهر .

وفائدته: التنبيه على تحقق الوقوع، وأن ماهو للوقوع كالواقع بالفعل، ولذلك عبر عنه بلفظ الماضى ، وهو كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه»(١) ، وقوله: «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين »(٢) .

---

(١) النحل ١ .

(٢) الأعراف ٥٠ .

وقوله : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »(١) وغير ذلك من الآيات .

والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى هو استعارة تبعية فى الفعل باعتبار زمانه حيث شبه غير الحاصل بالحاصل بجامع تحقق الوقوع فى كل منهما .

وفى هذه الآية يمكن إجراء الإستعارة كالتالى: شبه المجىء فى المستقبل بالمجىء فى الماضى بجامع التحقق فى كل ، ثم استعير المجىء فى الماضى للمجىء فى المستقل واشتق منه جاء بمعنى سيجىء على سبيل الإستعارة التبعية .

ومثل هذا يقال فى الآيات التالية فى قوله : « ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد » وقوله : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » وغير ذلك .

وفى «سكرة الموت» استعارة تصريحية ، حيث شبهت شدة الموت التى يلقاها المحتضر عند وفاته بسكرة الشراب فى كونها سبباً لذهاب العقل ، ثم استعير لفظ « سكرة » للهول والشدة التى يعانى منها المحتضر ، على سبيل الإستعارة التصريحية الأصلية .

وفى استعارة لفظ السكرة هنا إيحاء بانطفاء تلك الشعلة التى كانت تمد كيانه بالحرارة والحركة والحيوية ، فيبدو وكأنه جثة هامدة بلا شعور ولا حركة ولا وعى ، وسبحان مغير الأحوال .

وتأمل سر التعبير بالفعل « جاءت » ولم يقل «أتت» مثلا ، فقد آثر القرآن الكريم التعبير بالمجىء فى هذه المناسبة ، وعلينا أن نقدح زناد الفكر فى البحث عن تعليل لهذا الإختيار .

---

(١) الزمر ٦٨ .

وقد أوحى إلينا القرآن بالفرق الدقيق بين جملة « أتى » والجملة الأخرى صنوها وهى « جاء » وذلك فى قوله تعالى من سورة الأعراف بشأن موسى عليه السلام وقومه : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » (١).

إن هذا السياق يدل على أن جملة « أتى » تدل على الزمن البعيد ، وجاء » تدل على الزمن القريب . ولعل فى هذا التعبير الذى نحن بصدده دلالة على أن الموت مع أنه واقع لا محالة قريب جدا ، بالنسبة لكل إنسان يتحرك على ظهر الأرض ، لأن الإنسان عادة تعتريه الغفلة ، فينشغل بالآمال ويجرى وراء الحظوظ والشهوات فتشغله الدنيا عن الآخرة ، ويغتر بطول الأمل فى الدنيا ، وما أتفه الدنيا إن لم تتخذ وسيلة للحياة الأخرى الباقية !! وعجلة الزمان لا تتوقف لحظة واحدة .

ولذلك يأتى الموت بغتة فجأته للغافلين ، وأهواله التى لم يحسبوا لها حساباً فتزداد حسراتهم ، لما ينتظرهم من سوء المصير . ويقال للميت بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال : « ذلك ما كنت منه تحيد » :

وهنا نلاحظ التعبير باسم الاشارة للبعيد ، وهو يفيد التعظيم بالبعد على سبيل تنزيل البعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، ليشترك فى إدراكه العقل والبصر وهو تعبير مجازى على طريق الاستعارة .

والأصل فى أسماء الاشارة أن يشار بها إلى محسوس مشاهد بالبصر

---

(١) الأعراف ١٢٧، ١٢٩ .

قريب أو بعيد ، فإن أشير بها إلى ما يستحيل إحساسه نحو « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه (١) أو إلى محسوس غير مشاهد نحو « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون »(٢) فلأنه كالمشاهد لكمال إبرازه فى صورة المحسوس ، لشدة ظهوره ،

والمشار إليه هنا هو الموت أى ذلك الأمر العظيم الشأن الرفيع المنزلة الذى ينبغى على كل أحد الاعتداد به والاستعداد له بغاية الصبر والجلد ليكون من الفائزين .

وفى قوله « منه تحيد » تقديم المجار والمجرور . وهذا التقديم يفيد الحصر أى أن نفرته من الموت وهربه من وقوعه لا من غيره ، وذلك لشدة تعلقه بتلك الحياة الفانية ، ونفوره من سماع كلمة الموت وما يترتب عليه من بعث وحساب ، لأنه لم يتهيأ لاستقباله بالعمل الصالح ، ولذلك صورته الآية وكأنه لا ينفر إلا منه .

والخطاب فى قوله : « ذلك ما كنت منه تحيد » للإنسان فى قوله « ولقد خلقنا الانسان ... » ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب . والالتفات من محاسن الكلام ، ووجه حسنه هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظا الإصغاء من إجرائه على أسلوب واحد .

وفى قوله « ونفخ فى الصور » جاء الفعل مبنيا للمجهول أو لما لم يسم فاعله وهى ظاهرة أسلوبية مطردة فى القرآن الكريم عند التعرض لأهوال الحشر ومشاهد القيامة — وأقرأ إن شئت قوله تعالى : فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة(٣) .

---

(١) الأنعام ١٠٢ .
(٢) الزخرف ٧٢ .
(٣) الحاقة ١٣ ، ١٤ .

وقوله : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون »(١)

وقوله : « إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا »(٢) .

وقوله : « إذا زلزلت الأرض زلزالها »(٣) .

فما السر وراء هذه الظاهرة القرآنية ؟

إن استقراء الآيات الكريمة التى اضطردت فيها ظاهرة الاستغناء عن الفاعل يدلنا على أنها تأتى فى موقف القيامة ، وعند الحديث عن أهوال الحشر والبعث والنشور ، وهو موقف مهيب جليل ، تنخلع له القلوب ، ويشيب من هو له الولدان .

ولذلك حذف الفاعل ، حيث إن المقصود الأساسى هنا هو الحدث لا فاعل الحدث ، والبناء للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه وذلك أمر يقتضيه المقام ، ولكل مقام مقال ، فألفاظ القرآن موحية معبرة بمادتها وهيئتها عن المراد فى كل موقف بما يناسبه ، وهى ومضة من ومضات البيان القرآنى .

ولما كان التقدير : فكان من تلك النفخة صيحة هائلة ، ورجة شاملة فقام الناس عامة من قبورهم ، وحصل ما فى صدورهم ، عطف على الآية السابقة قوله : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » كما عطفت الأولى على سابقتها بالواو أيضا .

وسر الوصل بالواو بين الآيات الثلاثة هو التوسط بين الكمالين ، لاتفاق هذه الجمل فى الخبرية لفظا ومعنى ، مع اتفاق الأفعال فى الماضوية مما زاد

---

(١) يس ٥١ .　　(٢) الواقعة ٤ ، ٥ .

(٣) الزلزلة ١ .

التناسب بينهما ، وأضفى على الوصل حسنا ، وأكسب الأسلوب جمـــالا وبهـاء .

وانظر قوله « معها سائق » فلفظ « سائق » يوحى بكراهية النفس لهذا الموقف العصيب ، فهى تقدم عليه قسراً ، وهو يسوقها إلى ما هى كارهة للقائه ، لعلمها بما قدمت من المعاصى والنقائص .

ثم عطف عليه « شهيد » ولما كان العطف يقتضى المغايرة ، فإن ظاهر السياق يفيد أن السائق لا تعلق له بالشهادة أصلا ، لئلا تقول تلك النفس إنه خصم ، والخصم لا تقبل شهادته .

وأما تأكيد الأسلوب فى قوله « لقد كنت فى غفلة من هذا » فقد جاء جرياً على ما كان يستحقه إنكاره فى الدنيا للبعث ، وتنبيها على أنه لعظم أمره وخطورة شأنه مما يحق توكيده .

والتعبير بحرف الجر الموضوع للظرفية « فى » يدل على أن الغفلة تحيط به إحاطة الظرف بالمظروف ، فهى غطاء يغطى جسده كله أو غشاوة على عينيه تمنعه من الابصار ، فهو يفتقر إلى وضوح الرؤية ليفرق بين الحق والباطل .

وتنكير « غفلة » للتعظيم ، أى لقد كنت بطبعك فى غفلة عظيمة طاغية محيطة بك ، وهى التى جعلتك تنسى الحقيقة ، وتعرض عن الحق وتحيد عنه فلم تستطع أن تتصور هذا اليوم المشهود ، وأهواله الحسام .

والنظر فى الأسلوب على هذا النحو من شأنه أن يوضح لنا التناسب بين المبانى والمعانى ، والدقة فى انتقاء الألفاظ ، لتكون معبرة فى دقة مؤثرة فى قوة والمقام مقام رهبة وفزع ، فهو موقف حساب وجزاء للفصل بين العباد بالعدل .

وقد جاءت الآيات فى غاية القوة سريعـــة متلاحقة شديدة الوقع بحقائقها قوية الإيقاع بمبانيها ، واختيار كلماتها .

والفاصلة فى هـذه الآيات دال ، وهى مسبوقه بحرف اللين « الياء » وحرف اللين بطبعه يتيح للنفس أن يمتـد ، وبذلك تفرغ النفس أكبر قدر ممكن مما بها من شعور ، والشعور هنا هو الخوف والفزع والرهبة العظيمة وخصوصا من جانب المفرطين فى حق أنفسهم بأتباع الشهوات فى هذه الدنيا .

المعنى :

فى هذه الآيات عرض للأحـــداث التى تجىء عند الموت وبعده من مشاهد القيامة . فليس هـذا الموت هو نهاية المطاف كما يزعمون . وإنما وراءه بعث وحساب وثواب وعقاب .

ولما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوا به هم لاقوه عن قريب عنـد موتهم وعند قيام الساعة ، ونبه على أقتراب ذلك بأن عبر عنه بالماضى فقال : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » يعنى : وجاءت غمرة المـوت وشدته التى تذهب بالعقل بحقيقة الأمر الذى أنطق الله به كتبه وبعث به رسله ، وظهر صدق ذلك فيما يراه المحتضر عيانا ، فيقال لمن جاءته سكرة الموت : ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنهـا أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة أى علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بهما وجهه ، ويقول : لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات .

وروى أنه ﷺ قال : إن العبـد الصالح ليعالج الموت وسكراته

وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض . تقول : السلام عليك تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة .

والموت هو مجرد انتقال إلى عالم البرزخ ، ثم بعد ذلك يأتى الحشر بأهواله حين ينفخ إسرافيل فى الصور نفخة البعث والنشور ، فيخرج الناس من القبور سراعاً وذلك هو اليوم الذى يتحقق فيه الوعيد للكافرين المكذبين

يالله من موقف مهيب جليل ، ومشهد رهيب تنفطر له القلوب ، وتشيب من هوله الولدان ، إنه يوم الفصل بين العباد بالعدل الذى هو سر الملك وأساسه . فتجيء كل نفس معها سائق يسوقها إلى المحشر ، وشاهد يشهد عليها بعملها وعندئذ يقال الإنسان : لقد كنت فى الدنيا غافلا عن هذا الموقف ، وعن تصور هذا اليوم ، لأنه مع شدة جلائه خفى على من اتبع هواه وأعرض عن الحق .

واليوم قد أزلنا عنك الحجاب الذى كان على قلبك وسمعك وبصرك فى الدنيا فرجع بصرك الكليل عن الابصار لغفلته حديداً أى قويا نافذا ، وانكشفت لك حقائق الأشياء التى كانت محجوبة عنك . ومن كشف عنه حجاب الغفلة أبصر الأشياء كلها ، وثبت لديه العلم بأحوال يوم القيامة .

الآيات

قال تعالى: «وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد».

المفردات والتراكيب :

قرينه : الملك الموكل به ، وهو الشهيد الذى يحمل ديوان عمله . وقيل: المراد به الملكان السائق والشهيد معاً وإنما أفرد القرين فى الآية بناء على أن المراد به الجنس ، وهذا على أن الخطاب فى الآيات السابقة لكل نفس من النفوس المؤمنة والكافرة .

أما إذا كان الخطاب للكافر فوجه إفراد القرين ظاهر ، لأن قرين الكافر كاتب سيئاته ، وليس له كاتب حسنات .

والإشارة فى قوله : « هذا ما لدى عتيد» إلى ديوان عمله ، ويكون المعنى : هذا ما هو مكتوب عندى حاضر لدى .

وقال مجاهد : قرينه الذى قيض له من الشياطين(١) ، وإليه ذهب الزمخشرى حيث يقول : قرينه هو الشيطان الذى قيض له فى قوله تعالى : « فقيض له شيطانا فهو له قرين »(٢) ويشهد لهذا الرأى قوله تعالى : قال

---

(١) تفسير القرطبى ١٦/١٧ .

(٢) الزخرف ٣٦ .

قرينه ربنا ما أطغيته » والإشارة على هـــذا الرأى تكون إلى العاصى .

عتيد : معد حاضر . والمعنى : أن الشيطان يقول : هذا العاصى قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى .

ولكن كيف إعراب «هذا مالدى عتيد» ؟ :

الجواب : هذا مبتدأ . و«ما» إما أن تكون نكرة موصوفة بمعنى شىء أو تكون اسم موصول بمعنى الذى .

فإن جعلتها موصوفة ، فهى خبر المبتدأ ، و « لدى » ظرف متعلق بمحذوف صفة لما ، وعتيد صفة ثانية لها ، والمعنى : هذا شىء ثابت عندى حاضر وإن جعلتها موصولة، فهى مبتدأ ثان، و«لدى» ظرف متعلق بمحذوف صلة ما وعتيد خبر ما والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول .

ويصح أن تكون « ما » اسم موصول خبر المبتدأ « هذا » ، وعتيد بدل من « ما » أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو عتيد .

ألقيا فى جهنم : خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد، وهو الظاهر من الآية .

وقيل : هو خطاب للملكين من خزنة النار أو لواحـــد وهو مالك خازن النار .

والقول الأخير جائز على وجهين :

أحدهما: قول المبرد إن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل : ألق ألق للتأكيد . فأناب «ألقيا» مناب التكرار .

والثانى : أن العرب تخاطب الواحد خطاب الإثنين . فتقول : خذاه وأطلعاه للواحد .

وقال الفراء : العرب تقول للواحد : قوما عنا ، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان ، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا خليلى وصاحبى وقفا واسعدا .

خليلى مرا بى على أم جندب
نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقال آخر :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر
وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعاً

وقرأ الحسن : «ألقين» بنون التوكيد الخفيفة ، وهى تقلب فى الوقف ألفا فأجرى الوصل مجرى الوقف، فقيل : ألقيا فى حالتى الوصل والوقف.

كفار : مبالغ فى الكفر ، والضلال ، والإغترار بما عنده من أسباب القوة .

عنيد : شديد العناد مجانب للحق معاد لأهله ، يقال : عند يعند — بالكسر — عنوداً . أى : خالف الحق وهو يعرفه ، فهو عنيد وعاند ، وجمع عنيد عند بضم أوله وثانيه .

مناع للخير : كثير المنع للخير ، وكل حق واجب فى المال ، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم ، قيل : نزلت هذه الآية فى الوليد بن المغيرة ، وكان يمنع بنى أخيه من الإسلام ، ويقول : من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ماعشت .

معتد : ظالم متجاوز لحدوده فى منطقه وسيرته وأمره .

مريب : شاك فى الله وفى دينه . يقال : أراب الرجل فهو مريب ، إذا جاء بالريبة ، وهو المشرك .

الذى جعل مع الله إلها آخر : أى أشرك بالله غيره . واسم الموصول مبتدأ مضمن معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء فى الخبر « فألقياه » لمشابهة المبتدأ للشرط فى العموم . والمعنى : من جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد . أو اسم الموصول بدل من كل كفار ، وعلى هذا تكون جملة « فألقياه » تأكيداً لجملة « ألقيا فى جهنم » .

والمعنى : من شأن هذا الكافر أيضاً أنه جعل مع الله إلها آخر إما حقيقة كعبدة الأصنام . أو جعل فى موضع الرجاء المطلق والخوف المطلق بشراً من الناس ، فإن ذلك فى حكم الشرك ، فيأمر الله تعالى السائق والشهيد بإلقائه فى موضع العذاب الشديد . أى فى جهنم . جزاء وفاقا .

قال قرينه ربنا ما أطغيته :

قرينه : الشيطان الذى قيض له .

ما أطغيته : ما أوقعته فى الطغيان وما جعلته طاغياً ، ولكنه طغى بنفسه واختار الضلالة على الهدى ، كقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم »(١) .

وإنما خلت هذه الجملة من الواو بينما جاءت الآية الأولى معطوفة بالواو فى قوله : « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد » لأن هذه الجملة استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول ، ومن هذا القبيل حكاية المقاولة

---

(١) إبراهيم ١٢ .

بين موسى وفرعون فى سورة الشعراء : « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنـــين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين ... »(١) .

ولـكنى أين المقاولة هنا ؟ والجواب :

لمـا قال قرينه « هذا ما لدى عتيد » وتبعه قوله « قال قرينـه ربنا ما أطغيته » وتلاه قول الله تعالى : « لا تختصموا لدى » علم أن هنا مقاولة بين الـكافر وقرينه ، لـكنها طرحت لدلالة السياق عليهـا . كأنه لمـا قال القرين : « هذا مالدى عتيد » قال الـكافر : رب هو أطغانى . فقال قرينه : « ربنا ما أطغيته » فلما حكى قول القرين والـكافر . كأن سائلا سأل : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : « قال لا تختصموا لدى » .

وأما الجملة الأولى : « وقال قرينه هـذا ما لدى عتيد » فقد عطفت بالواو لأنها أول المقاولة . ولابد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ماقبلها فى الحصول أعنى : مجىء كل نفس مع الملـكين وقول قرينه ماقال له(٢) . فحقها أن تعطف على الآيات المذكورة قبلها .

قال لا تختصموا لدى :

النهى هنا موجه إلى الـكافرين وقرنائهم من الشياطين . وقيل : هذا خطاب لـكل من اختصم . والظاهر يؤيد المعنى الأول . والباء فى « بالوعيد » زائدة مثلها فى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »(٣) أو للتعدية على أن قدم مطاوع بمعنى تقدم .

---

(١) الشعراء ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) الـكشاف ٤/٨ .
(٣) البقرة ١٩٥ .

وقوله «وقد قدمت إليكم بالوعيد» فى موقع الحال من «لا تختصموا» وصح ذلك مع أن التقديم بالوعيد فى الدنيا والخصومة فى الآخرة ، لأن المعنى : لاتختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد . وصحة ذلك عندهم فى الآخرة فاتحد زمان الفعلين : الحال والعامل فى صاحبه .

ما يبدل القول لدى :

القول : قال المفسرون : المراد وعده تعالى بعذاب الكافر وتخليده فى النار فى قوله « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »(١) . والعفو عن بعض المذنبين ليس تبديلا ، لأن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد ، وأنه مشروط بشرائط فالآيات الواردة فى حق الوعيد ليست عامة فى حق جميع العصاة . بل هى واردة فى حق من تعلقت المشيئة بتعذيبهم ، بقرينة آيات العفو الواردة فى حق من تعلقت المشيئة بالعفو عنه ، والله تعالى يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، فلا تبديل فى القول بالعفو عن بعض المذنبين .

وما أنا بظلام للعبيد : أى بذى ظلم ، فهو من باب النسب مثل : لبان وتمار أى صاحب لبن وتمر ، وعلى ذلك فلا شبهة فى نسبة أى نوع من الظلم إلى الله سبحانه وتعالى . وما الله يريد ظلما للعباد فضلا عن أن يظلمهم .

وقيل : إن ظلام صيغة مبالغة على بابها . ولما كان نفى المبالغة فى الظلم ربما يتوهم منه إثبات أصل الظلم مع إنتفاء الكثرة فقد أجاب الزمخشرى عن هذا الاشكال فقال :

فيه وجهان : أحدهما أن يكون من قولك هو ظالم لعبده وظلام لعبيده(٢)

---

(١) السجدة ١٣ . (٢) مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، فهو بالنظر إلى الواحد ليس ظالماً وبالنظر إلى كثرة العبيد ليس ظلاما .

والثانى : أن يكون المراد : لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم ، فنفى ذلك .

فظهر بهذا أن نفى كونه ظلاماً يستلزم نفى كونه ظالماً « ولا يظلم ربك أحداً » .

يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد :

يوم : ظرف زمان منصوب بظلام . وإذا لم يظلم فى هذا اليوم فعدم كونه ظالماً فى غيره أولى .

أو هو ظرف لقوله « ما يبدل» على أن المعنى : «ما يبدل القول لدى يوم نقول . . . » ويجوز أن يكون منصوبا بمضمر أى : أذكر أو أنذر يوم نقول ...

وقرأ نافع وأبو بكر : «يوم يقول» بالياء. وقرأ الحسن : «يوم أقول» وقرأ الباقون بالنون(١) ، وهى نون العظمة والفخامة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى .

والمزيد : مصدر مثل مجيد . أو اسم مفعول مثل مبيع .

أسرار بلاغية :

فى قوله تعالى : « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد» لطيفة عجيبة حيث عبر بأداة ما لا يعقل فى قوله «ما لدى» وذلك لأن أمر الطائع والعاصى فى غاية العجب لأن الطائع يجاهد نفسه وهواه فيكون ملكا مجردا عن حظوظه ونوازع نفسه . والعاصى طوع يدى الشيطان يحركه كيف يشاء فيطيعه بغاية الشهوة مع علمه بعداوته وأن طاعته لا تكون إلا بمخالفة أمر الله الولى الودود .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٨ .

ولما كان العاصى أكبر عدداً ، وأعظم كثرة ، بحيث يبدو الطائع فيها بالنسبة إليه كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود . وكان ذلك منابذا للعقل فقد أشار القرآن إلى هذه المنابذة بأداة غير العاقل فقال «ما لدى» أى الأمر الذى عندى من الأمور العجيبة المستغربة . لكون المطيع عصانى وهو مطبوع على النقائص والشهوات . والعاصى أطاعنى وهو يعلم بعقله أن ذلك شر محض ، فترك الخير المحض وهو يعلم بأن فى ذلك هلاكه .

فالتعبير بما فى غاية البلاغة ، لأنه مطابق لمقتضى الحال فى هذا المشهد المهيب . وفى قوله « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد » :

التعبير بالإلقاء يفيد الطرح فى جهنم دفعاً من غير شفقة ولا رحمة كما كان يعامل به عباد الله من الكبر والعبوس والتعصب لما عنده تكبراً وعناداً . والازدراء لما عنده غيره .

وصيغة المبالغة فى « كفار عنيد » جاءت مطابقة لما يقتضيه المقام ، لأن المقصود تعليل إلقائه فى جهنم بوصف يكون حجة عليه ، فجاءت هذه النعوت القبيحة المستحقة لتشديد العقوبة ، وهى دليل على غضب الجبار فى هذا الموقف العصيب الرهيب . فالغرض من الوصف بهذه الأوصاف الذمية لبيان استحقاقه للعقوبة . مع المبالغة فهو كفار عنيد أى مبالغ فى ستر الحق والمعاداة لأهله بغير حجة وهو مناع للخير أى كثير المنع للخير من مال وغيره .

فهو مع كونه كفاراً عنيداً لا يقنع بهما ، بل يتخطى إلى أن يمنع ماله عن كل مستحق يطلب شيئاً من ماله ، جبا للمال وبخلا به على مستحقيه ، وهو مجاوز للحدود شاك فى الله وفى دينه .

وفى قوله « فألقياه فى العذاب الشديد » مجاز مرسل . فالكافر لا يلقى

فى العذاب ، لأنه معنى من المعانى ، وإنما يلقى فى مكان العذاب وهو جهنم، فهو مجاز مرسل علاقته الحالية . من إطلاق الحال وإرادة المحل .

ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة فى تصوير العذاب ظرفاً لهم، مع شموله وإتساعه بحيث يحتوى عليهم .

وفى قوله «قال قرينه ربنا ما أطغيته» فصل هذه الآية عما قبلها لشبه كمال الاتصال (الاستئناف)، فقد ترك العطف بالواو ، لأن هذه الجملة وردت رداً على سؤال إقتضته الجملة السابقة فى المقاولة، حين قال الكافر: رب هو أطغانى . فكأن سائلا سأل : فماذا قال القرين؟ فجاء الجواب : «قال قرينه ربنا ما أطغيته » وهذا نوع من أنواع الاستئناف فى السؤال عن غير السبب .

وفى قوله «ولكن كان فى ضلال بعيد» تصوير للضلال بصورة الظرف الذى يحتوى عليه ويحيط به من جميع جوانبه ، فهو متمكن منه ، بحيث لا يمكن رجوعه إلى الحق مع هذا الضلال ، ولذلك كان يبادر إلى كل ما يغضب الله ، ولا يحتاج إلى أدنى تحريك أو إثارة من الشيطان الذى قيض لإغوائه وإضلاله ، وكأنه مجبول على الضلال مركوز فى طباعه .

وفى قوله : « قال لا تختصموا لدى » الفصل لشبه كمال الاتصال (الاستئناف) كما فى الآية السابقة . وكأن سائلا سأل : فماذا قال رب العزة سبحانه وتعالى ؟ فقيل : قال لا تختصموا لدى أى فى دار الجزاء بعد الحضرة التى هى فوق ما كنتم تدركونه من الإخبار عنها بكثير وأعجب مما لا يدرك حق الإدراك .

وقوله «لدى» دل بمفهومه على أن الاختصام المنهى عنه هو الاختصام فى الموقف . وأما الاختصام فى الدنيا فغير منهى عنه ، بل هو واجب ،

لأن طاعة الشيطان لا تكون إلا بمخالفة أمر الله، وهو الإنسان عدو مبين، ولذلك نهانا الحق سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان حتى نفوز برضا الله فى العاجل والآجل .

ولما كانت الأوقات كلها عند الله سواء أى كلها حاضرة فلا ماضى ولا مستقبل عبر سبحانه بما التى هى للحال دون لا التى هى للنفى فى المستقبل ، فقال « ما يبدل القول لدى» أى ما يغير ما كان بوجه من الوجوه ، ولا يقع الخلف فى القول لدى الآن ، بل ينجز ويحقق مضمونه .

وفى قوله : «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» : هذه الآية تصوير لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث يدخلها من الخلائق من يدخلها وفيها موضع للمزيد ، وعلى ذلك فلا قول ، وإنما هو تصوير لحالها كما قال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطنى مهلا رويدا قد ملأت بطنى

والاستفهام فى قوله : « هل امتلأت » خارج عن حقيقته إلى التقرير ، فهو استفهام تقريرى بمعنى التحقيق والتأكيد .

والاستفهام الصادر عن النار « هل من مزيد» خارج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى هو النفى المفضى إلى إقرارها بالامتلاء ، أى أن الله تعالى يقول للنار : قد امتلأت . فتقول هى : لا زيادة ، أى امتلأت ولم يبق موضع لمزيد من البشر .

ويجوز أن يكون الاستفهام فى قوله حكاية عن النار « هل من مزيد» : اطلب الزيادة فكلما قال الله لها «هل امتلأت» تقول : رب زدنى .

ومعنى ذلك أن جهنم شبهت بمن له عقل وتمييز يسأل ويجيب . وحمل

إثبات لوازم المشبه به لها دليلا على هذا التشبيه المضمر فى النفس(١) .

ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا الأسلوب من التوبيخ للكافرين الذين كفروا بالبعث والنشور ، وتنكبوا الصراط السوى ، وأعرضوا عن الحق فلم يستجيبوا لدعوة الرسل عليهم السلام .

المعنى :

تمضى بنا الآيات فى إستعراض مشاهـــد القيامة فى الآخرة ، يوم العرض على الله للحساب حيث ينكشف الغطاء عن ابن آدم فيبصر من الحق مالم يكن يبصره فى الدنيا لغفلته . ويرى من الحقائق ما كان محجوبا عنه .

وفى هذا الموقف العصيب الرهيب يتقدم قرينه ، وهو الشهيد الذى يحمل سجل حياته ، فيقول : هذا وكلتنى به من بنى آدم ، فقد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، وهنا يأتى دور النطق بالحكم ، ليعلم كل عبد مصيره إما إلى جنة وإما إلى نار .

---

(١) يرى ابن المنير الاسكندرى أن السؤال والجواب على حقيقتهما وأن الله تعالى ينطقها حتى تقول هذا كما ينطق الجوارح ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك . والله على كل شىء قـــدير . فانطاق الجماد والحجر والشجر جائز عقلا وحاصل شرعا ، وقد أخبر القرآن أن نملة تكلمت وأن كل شىء يسبح بحمد الله وغير ذلك . ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر مالم يمنع مانع ولا مانع هنا . فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوز . والظواهر قاضية بوقوع ما صوره العقل ، وقد وقع مثل هذا قطعا فى الدنيا كتسليم الشجر وتسبيح الحصا فى كف النبى ﷺ . الانتصاف بهامش الكشاف ٤/١٠ .

وقد بدأ بالعاصى لأن المقام له ، وللدلالة على أنه لا وزن له فلا وقفة فى عذابه بحساب ولا غيره . فيقول الحق تبارك وتعالى للسائق والشهيد : اقذفا فى نار جهنم كل كفار معاند للحق الذى جاءت به الرسل ، مبالغ فى منع الخير عن مستحقيه ، مجاوز للحدود مشرك بالله ، فهو متهم النفس والضمير بإرادة السوء فى دوافعه وتصرفاته ، فجزاؤه جهنم وبئس المهاد .

وعندما يوقن ذلك الكافر بأنه من أهل النار يأخذ فى إلقاء التبعة على قرينه من الشياطين فيقول : يا رب أطغانى الشيطان وأضلنى ، فيقول الشيطان : ربنا ما أطغيته ولا أضللته ، ولكنه ضل باختياره وآثر الضلالة على الهدى . وإنما دعوته فاستجاب لى .

وهنا يجىء القول الفصل فينهى كل قول : « قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » فالمقام ليس مقام إختصام ، إذ لا فائدة من الخصومة هنا . وقد سبق أن أوعدتكم بالعذاب على الضلال والطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى ، وكل شىء مسجل لا يبدل . ولا يعذب أحد بغير استحقاق ، ولا يظلم أحد « لا ظلم اليوم » فالقاضى هو الحكم العدل الذى يقضى ولا راد لقضائه ويحكم ولا معقب لحكمه ، وقد حكم بتخليد الكافر فى النار وتعذيب العصاة على قدر استحقاقهم ، فلا تبديل فى هذا الحكم ، وما ربك بذى ظلم للعبيد ، فيعذب أحدا بغير جرم يستحق العقاب .

ثم يمضى بنا مشهد الحساب ، فيكشف السياق عن جانب منه مخيف ، فتعرض جهنم فى معرض السؤال والجواب . وبهذا الحوار يتجلى مشهد رهيب عجيب !!

إن جهنم تتلظى غيظا على العصاة والمعاندين ، للانتقام منهم ، فيلقى فيها هذه الكثرة الكاثرة من العصاة ، وتتكدس ركاما ، ثم تنادى جهنم « هل

امتلأت ، واكتفيت ؟ ولكنها تحرق وتميز وتقول فى كظة الأكول النهم « هل من مزيد » .

وفى الحديث : لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض (أى تنقبض على من فيها وتشتغل بعذابهم) وتقول قط قط بعزتك وكرمك . ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة ، رواه مسلم والبخارى والترمذى .

الآيات

قال تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

المفردات والتراكيب :

أزلفت : قربت وأدنيت منهم بأيسر أمر مع الدرجات والحياض المختلفة . غير بعيد أى مكانا غير بعيد ، فهو منصوب على الظرفية ، لقيامه مقام الظرف لأنه صفته . أو هو منصوب على الحال ، وتذكير « بعيد » لأنه على زنة المصدر كالزئير والصليل . والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث .

هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ :

هذا : إشارة إلى الثواب ، أو إلى مصدر « أزلفت » ، وهو الإزلاف .

وقرأ ابن كثير : «هذا ما يوعدون» بالياء على الخبر ، لأنه أتى بعد ذكر المتقين والاسم الظاهر من قبيل الغيبة .

أواب : رجاع إلى ذكر الله تعالى ، كثير الرجوع عن الذنوب بالتوبة . وقيل : الأواب هو المسبح ، من قوله تعالى : « يا جبال أوبى معه والطير »(١) . وقيل : هو الذاكر لله تعالى فى الخلوة ، وهى آراء متقاربة فالمسبح ذاكر لله ، والذاكر لله كلما أذنب ذنبا بادر بالرجوع إلى الله ، واستغفر وأناب .

حفيظ : مبالغ فى حفظ حدود الله وسائر عهوده بدوام الاستقامة .

---

(١) سبأ ١٠ .

وقيل : إن جملة « هذا ماتوعدون » اعتراضية . و « لكل أواب » بدل من قوله « للمتقين » بتكرار الجار(١) ، كقوله تعالى : « للذين استضعفوا لمن آمن منهم »(٢) .

من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب :

من خشى : بدل من قوله « لكل أواب » فى محل جر ، ويجوز الرفع على الاستئناف ، فيكون «من» مبتدأ . والخبر تقديره : يقال لهم ادخلوها بسلام ، لأن « من » فى معنى الجمع ، و « بالغيب » حال من المفعول وهو « الرحمن » أى خشيه وهو غائب لم يعرفه إلا بطريق الاستدلال ويجوز أن يكون « بالغيب » صفة لمصدر « خشى » أى خشية ملتبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب .

والخشية بالغيب : أن تخافه ولم تره . وقيل : فى الخلوة حيث لا يراه أحد . منيب : مقبل على الله ، مخلص لدينه ، تارك لهوى نفسه .

والمعنى : أن من صفات المتقين السابق ذكرهم خشيتهم لله مع علمهم بسعة رحمته دون أن يروه ، فهذا الأواب الحفيظ خشى الله بالغيب لقوة يقينه وجاء يوم القيامة وهو ذو قلب سليم راجع إلى ربه بوازع العلم .

ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود :

بسلام : سالمين من العذاب وزوال النعم ، فالجار والمجرور فى محل نصب على الحال من فاعل « ادخلوها » ، وهى حال مقارنة .

قيل : بسلام من الله وملائكته عليهم ، والتقدير : ادخلوها مسلماً عليكم من الله وملائكته(٣) . قال تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام »(٤) .

---

(١) الكشاف ٤/١٠ .
(٢) الأعراف ٧٥ .
(٣) تفسير القرطبى ١٧/٢١ .
(٤) يونس ١٠ .

ذلك : إشارة إلى زمان الدخول وهو يوم إبتداء الخلود أى الإقامة الدائمة التى لا آخر لها ، ولا نفاد لشىء من لذاتها . أى أن أهل الجنة لا يرتحلون عنها فيبقى فى قلوبهم حسرتها . بل يخلدون فيها أبداً .

لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد :

لدينا : عندنا من الأمور ما لا يخطر ببالهم ، وهو ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم . ومزيد مبتدأ مؤخر . وإنما تقدم الخبر على المبتدأ ، لأنه نكرة ولا مسوغ للإبتداء بها هنا ، فجاء مؤخراً ، وهو إما مصدر بمعنى زيادة . أو اسم مفعول مثل مبيع أى مزيد عليه .

والمعنى : لهم فى الجنة ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم ، وعندنا فوق ذلك ما لم يخطر على قلب بشر من النعم .

وقال أنس وجابر بن عبد الله : المزيد : هو النظر إلى وجه الله بلا كيف . وقد ورد فى ذلك أخبار مرفوعة للنبى ﷺ فى قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »(١) قال : الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم(٢) . وذلك هو أفضل ما لديه من المزيد ، وإلا ففى الجنة مزيد على كل ما يؤملونه غير ذلك .

أسرار بلاغية :

قوله « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » أى قربت وأدنيت من الأبرار الأتقياء حتى تتراءى لهم من قريب مع الترحيب والتكريم ، فالجنة تقرب للمتقين فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هى التى تجىء إليهم ، وفى ذلك ما فيه من إكرام المؤمن وبيان شرفه وأنه مما يتمشى إليه ، وخص المتقين لأنهم أحق بها .

---

(١) يونس ٢٦ .

(٢) تفسير القرطبى ١٧/٢١ .

وعبر بالماضى فى قوله « وأزلفت » مع أنه مستقبل، وذلك للتنبيه على تحقيق الوقوع ، وأن ما هو للوقوع كالواقع تماماً .

وفائدة قوله « غير بعيد » بعد قوله « وأزلفت » التأكيد ، كما تقول : هو قريب غير بعيد . وعزيز غير ذليل . لأن القرب أمر نسبي ، فحسن تأكيده بذلك .

وفى قوله « هذا ما توعدون » عبر بالمضارع والمراد : هوا الذى وقع الوعد لكم به فى الدنيا ، ولكنه آثر المضارع حكاية لتلك الحال الماضية .

وفى قوله : « لكل أواب » أى رجاع إلى الإستقامة بتقوى القلب إن حصل فى ظاهره عوج . وفى ذلك تنبيه على أنه من فضله لم يشترط فى صحة الوصف بالتقوى دوام الإستقامة ، لعلمه بحال عبده .

وفى قوله: « من خشى الرحمن بالغيب » جاء التعبير بالخشية فى موضعه المناسب ووقع موقعا حسنا . فالخشية وإن كانت تفسر بالخوف إلا أن بينهما فرقا ، وهو أن الخشية خوف من عظمة المخشى وهيبته ، بخلاف الخوف ، فإنه ناتج من ضعف الخاشى ، ويدل على ذلك أنه حيث كان الخوف من عظمة المخشى وهيبته استعمل فيه الخشية ، وإن كان الخاشى قوياً فى نفسه . قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(١) وقال : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله »(٢) وقال : « وهم من خشيته مشفقون »(٣) مع أن الملائكة والجبل أقوياء فى أنفسهم .

وحيث كان الخوف من ضعف الخاشى استعمل فيه الخوف ، قال

---

(١) فاطر ٢٨ .
(٢) الحشر ٢١ .
(٣) الأنبياء ٢٨ .

تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا »(١) . ويقال : الخشية ألطف من الخوف ، فمكانها قريبة من الهيبة .

وفى اقتران الاسم الدال على سمة الرحمة « الرحمن » بالخشية مبالغة فى الثناء على المتقين لخشيتهم من الله مع علمهم بأنه الواسع الرحمة ، وهذا دليل على كثرة خشيتهم لله ، لأن الإنسان إذا خاف مع استحضار الرحمة العامة للمطيع والعاصى ، كان خوفه مع استحضار غيرها كالعذاب والنقمة أولى .

وفى تقييد الخشية بقوله « بالغيب » ثناء زائد عليهم ، فهم يخشون الله مع أنه غائب عنهم ، لقوة إيمانهم .

ولما كان النافع من الطاعة هو الدائم إلى الموت قال « وجاء بقلب منيب » . أى راجع إلى الله تعالى ، مقبل على دينه بوازع العلم .

والإنابة هى الرجوع عن المعصية إلى الطاعة ، فالموصوف بالإنابة فى الحقيقة هو المكلف ، ولكنه وصف القلب بها ، للإشعار بأن المعتبر فى الرجوع إلى الله تعالى إنما هو الرجوع بالقلب .

وفى قوله « ذلك يوم الخلود » تعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد ، وفائدته التعظيم بالبعد ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، فهو يوم عظيم حقا ، إنه يوم تقدير الخلود فى دار الأبرار حيث النعيم المقيم ورضوان من الله أكبر .

وإنما قال « ذلك يوم الخلود » مع أن المؤمن قد علم فى الدنيا أنه إذا دخل الجنة خلد فيها لأمرين : الأول أن الله تعالى قال « ذلك يوم الخلود »

---

(١) فصلت ٣٠ .

فى الدنيا ، إعلاماً وإخباراً ، وليس ذلك قولا يقوله حين دخولهم الجنة الثانى : أن اطمئنان القلب بالقول أكثر .

والتعبير بالمضارع فى قوله « لهم ما يشاءون فيها » يفيد التجدد . أى لهم فيها كل ما يخطر ببالهم ، أو تتجدد مشيئتهم له .

ليس هذا فحسب بل زادهم إكراماً وتشريفاً فقال : « ولدينا مزيد » مما لا يدخل تحت أوهامهم ليشاءوه .

ولما كان السياق للإمتنان على الخلق بجلائل النعم ، والنعمة من العظيم عظيمة فقـــد عبر هنا بضمير العظمة والفخامة فقال : « ولدينا مزيد » والتعبير بلدى يؤكد ذلك . وفى هذا إشارة إلى عظيم التفضل من الحق على الخلق ، فهم فى كل لحظة فى زيادة على أمانيهم عكس ما كانوا فى الدنيا فمقدورات الله لا تنحصر ، لأن معلوماته لا تنتهى .

المعنى :

لما فرغ الحق سبحانه من بيان حال الكفار وما يلاقونه من أهوال وشدائد فى هذا الموقف العصيب شرع فى بيان حال المؤمنين وما ينتظرهم من نعيم مقيم فى الجنة .

وقد جرت عادة القرآن أن يشفع الوعد بالوعيد والبشارة بالإنذار والترغيب بالترهيب على سبيل الإرشاد للعباد ، والتذكير بالعواقب ، لأن الجزاء من جنس العمل .

وهذا مشهد آخر وديع أليف ، رضى جميل . إنه مشهد الجنة تقرب من المتقين حتى تتراءى لهم من قريب مع التحبيب والتكريم ، ويقال لهم : هذا الذى ترونه من النعيم هو الذى وعده الله لكل عبد كثير الرجوع إليه

حافظ لحدوده تعالى يخشى الله مع علمه بسعة رحمته دون أن يراه ، وذلك لقوة إيمانه ، وصدق إعتقاده فهو ذو قلب سليم مقبل على الله مخلص لدينه .

لقد عرفوا قدرهم عند الله ، وسعدوا بنيل الرضا من الملأ الأعلى ، وعندئذ يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج ، فذلك هو البقاء الذى لا يعتريه فناء ، إذ لا موت فى الجنـــة . قال تعالى : « وهم فيها خالدون »(١) .

فهنيئا لهؤلاء السعداء بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود . إنهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومع ذلك يضيف الحق تبارك وتعالى إلى هذا النعيم مزيدا « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » أى لهم فى الجنة ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم وعندنا فوق ذلك ما لم يخطر على قلب بشر من النعم .

---

(١) البقرة ٢٥ .

الآيـــات

قال تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البـــلاد هل من محيص إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

المفردات والتراكيب :

كم ، خبرية بمعنى كثير ، مفعول مقدم ، لأن كم الخبرية تجرى مجرى الاستفهامية فى اقتضاء الصدارة . وناصبها قوله « أهلكنا » .

قرن : جماعة من الناس يعيشون فى زمن واحد . وقوله « من قرن » تمييز كم . أى كثيرا من القرون .

بطشا : قوة وسطوة . وقوله « هم أشد منهم بطشا » إعرابه كالتالى :

هم أشد : مبتدأ وخبره . ومنهم : جار ومجرور متعلق بأشد . وبطشا : تمييز نسبة . والجملة فى محل جر صفة لقرن . ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة كم .

فنقبوا : ساروا فى البلاد وطوفوا فيها . كما قال الحارث بن حلزة :

نقبـوا فى البلاد من حـــذر المو
ت وجالوا فى الأرض كل مجال

وقرىء : فنقبـوا — بالتخفيف — والنقب : هو الخرق والدخول فى الشىء . أى خرقوا البلاد وساروا فى نقوبها .

والفاء فى قوله « فنقبوا » عاطفة على معنى ما قبلها ، كأنه قيل : اشتد بطشهم فنقبوا فى البلاد .

وقرىء : فنقبوا — بكسر القاف مع التشديد — على أنه أمر للمخاطبين كقوله تعالى « فسيحوا فى الأرض » أى فسيروا فيها هل تجدون محيصاً من قهر الله تعالى ، أو من الموت .

محيص : مفر من الله تعالى أو من الموت . و« هل » إستفهام مجازى بمعنى النفى . ومحيص : مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره ، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر « من » الذى جىء به للتوكيد . وهو الذى نقول عنه فى كلامنا : حرف جر زائد . وخبر المبتدأ محذوف تقديره : هل من محيص لهم أو لغيرهم .

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد :

ذكرى : تذكرة وموعظة .

ألقى السمع : أصغى للقرآن . والعرب تقول : ألق إلى سمعك . أى استمع . وشهيد : حاضر بفطنته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب . أو المعنى : وهو مؤمن شاهد على صحته . وأنه وحى من الله(١) . وجملة « وهو شهيد » فى محل نصب حال من فاعل ألقى .

أسرار بلاغية :

فى قوله « وكم أهلكنا قبلهم من قرن » أسند الإهلاك إلى ضمير العظمة والفخامة ، لأن المقام للتخويف والتهديد والإنذار للمشركين . والنقمة المسندة إلى العظيم عظيمة بعظمته ، فالتهديد يكتسب الشدة وقوة الأثر من إسناده إلى ضمير الفخامة ، ولذلك اقترن الانتقام المهدد به فى القرآن بضمير العظمة زيادة فى إيقاع الهول به فى النفس وفاء بحق المقام .

---

(١) الكشاف ٤/١١ .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : «وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون»(١) .

وقوله : «كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص»(٢) وقوله «ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين»(٣) .

ولما كان المراد تعميم الإهلاك فى جميع الزمان لجميع الأمم فقد نزع الجار فقال «قبلهم» ولم يقل «من قبلهم» كما فى سورة ص . وذلك لبيان إحاطة القدرة وشمولها ، فحذف الجار هنا يدل على أن كل من كان قبل قريش كانوا أقوى منهم .

وإثبات حرف الجر هناك فى سورة ص يدل على أن المذكورين بالإهلاك هناك هم بعض المهلكين لا كلهم .

وفى قوله «هل من محيص» استفهام مجازى . والاستفهام من الله سبحانه وتعالى لا بد أن يحمل على غير حقيقته ، لأن حقيقة الاستفهام تقتضى الجهل بالمسئول عنه ، والله يعلم السر وأخفى ، فالاستفهام هنا خارج عن حقيقته إلى معنى آخر هو النفى . أى : لا محيص ولا مهرب من الله إلا إليه .

وفى هذا الاستفهام تنبيه للغافل الذاهل ، وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل ، حيث لا مفر من عذاب الله يوم القيامة .

وتنكير القلب فى قوله «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب» يفيد التعظيم أى قلب واع فى غاية العظمة والنورانية ، إذ لا يتذكر إلا القلوب

---

(١) الأنبياء ١١ .
(٢) ص ٣ .
(٣) المرسلات ١٦، ١٧، ١٨ .

الواعية «إنما يتذكر أولو الألباب» . ولكنه أطلق القلب فى الآية للإشعار بأن من ليس له قلب واع ، فكأنه لا قلب له ، فكل قلب لا يعى ولا يعتبر بالمواعظ ، كالعدم ، لأنه فقد المقصود منه .

وفى التقييد بالجملة الحالية «وهو شهيد» فائدة عظيمة ، لأن من ألقى السمع إلى ما تلى يكون حاضراً بشخصه لا محالة ، لاستحالة الإصغاء من القلب الغائب . وهذا يقتضى أن يكون المراد بشهيد : حاضر الذهن فطنا لما يسمعه ، أى أنه حاضر بذاته وذهنه ، فهو فى غاية ما يكون من تصويب الفكر وجمع الخاطر فلا يغيب عنه شىء مما تلى عليه ، فيتذكر بما فى ذلك من العظات الواردة على هذه الأساليب العجيبة والطرق الغريبة والإهلاك للمكذبين والنجاة للمؤمنين الصادقين ، وعندئذ يقف على عظيم قدرة الله وإحاطة علمه ويرى مجد القرآن فيعلم أنه كلام الله تعالى ، ويصدق الرسول فيما جاء به من عند الله عز وجل . وبذلك تظهر فائدة التقييد بالجملة الحالية ، ومن يسمع شيئا وهو لا يحضر بذهنه فكأنه غائب .

وكلمة «أو» فى قول «أو ألقى السمع» لتقسيم حال المتذكر إلى كونه تاليا بنفسه ، وكونه سامعاً من غيره ، وقد حسن موقع أو هنا وعلم منه عظيم شرف القرآن ، وأنه ميسر للكامل والناقص ، لا يمنع من تدبره غير الاعراض .

المعنى :

لما أخبر الله منكرى البعث بما يلاقونه عن قريب من الموت والبعث ولقاء الكافرين فى العذاب الشديد خوفهم هنا بعذاب الدنيا فقال : «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا . . .»

وهكذا يخبر الله نبيه أنه أهلك كثيراً من الأمم قبل مشركى مكة ، وكانوا

أشد منهم قوة ، وأعظم منهم بطشا وسطوة فساروا فى الأرض، وطوفوا فى البلاد وجالوا فى أقطارها ، فأخذهم الله بذنوبهم ولم يكن لهم من الموت مهرب ، إذ لا ملجأ من الله إلا إليه . والآية تسلية للنبى ﷺ وتحذير للمشركين وتنبيه للغافلين . ولذلك عقب عليها بقوله « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » أى أن فيما أصاب المكذبين من الأمم السالفة من الهلاك الشامل والدمار المروع لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يفقه به. أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر الذهن متفطن القلب ، ليفتفع ويتعظ بما سمع ، فينجو من عذاب النار .

الآيات

قال تعالى: «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود» .

المفردات والتراكيب :

ما بينهما : أصناف المخلوقات من الناس والحيوان والنبات وغيرها مما لا يعلمه إلا الله عز وجل .

لغوب : تعب واعياء . تقول : لغب يلغب — بالضم — لغوبا ، أى تعب .

وما مسنا من لغوب :

الواو واو الحال ، مسنا فعل ومفعوله . والفاعل لغوب ، وهو مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الذى جىء به للتوكيد وهو ما نسميه فى غير القرآن حرف جر زائدا . والجملة من الفعل وفاعله ومفعوله فى محل نصب حال .

قال الحسن وقتادة : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة حيث زعموا أن الله تعالى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش(١) فكذبهم الله تعالى بهذه الآية .

فاصبر على ما يقولون :

الخطاب للنبى ﷺ . والفاء واقعة فى جواب شرط مقدر أى إذا لم

---

(١) هذا قول قتادة والكلبى كما ذكر القرطبى ١٧/٢٤ ، ونسبه الواحدى فى أسباب النزول إلى الحسن وقتادة بلفظ قريب منه .

يسمعوا قولك ولم يهتدوا بإرشادك فاصبر على ما يقولون من أباطيلهم واشتغل بعبادة ربك .

وسبح بحمد ربك: نزه ربك عما لا يليق بذاته المقدسة من قول أو فعل وقيل : أراد به الصلوات الخمس .

قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح . وقبل الغروب : صلاة العصر .

وقال ابن عباس : قبل الغروب الظهر والعصر. فالتسبيح فى الآية محمول على ظاهره من التنزيه بالقول . أو على الصلاة .

ومن الليل فسبحه وأدبار السجود :

من الليل : أى بعض الليل ، فتكون من للتبعيض . المراد تسبيح الله تعالى فى الليل . أو صلاة التهجد .

فسبحه : الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر أى : مهما يكن من شىء فسبحه .

وأدبار السجود : بفتح الهمزة وهى قراءة الجمهور جمع دبر أى أواخر الصلوات . وقرأ نافع وابن كثير وحمزة «وإدبار السجود» بكسر الهمزة، على المصدر من أدبر الشىء إدباراً إذا ولى. ومعناه : وقت انقضاء الصلوات وتمامها كقولهم آتيك خفوق النجم ، أى وقت خفوقه .

والركوع والسجود يعبر بهما عن الصلاة ، لاشتمال الصلاة عليهما .

أسرار بلاغية :

فى قوله : «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام» .

حديث عن خلق السماوات والأرض وما بينهما باعتباره أثرا عظيما من آثار القدرة القادرة التى لا يتصف بها إلا عظيم . ولذلك جاء التعبير بضمير العظمة مناسبا للمقام ، وهذا الأسلوب كثير شائع فى القرآن الكريم .

قال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين »(١) وقال تعالى : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق »(٢) وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »(٣) .

وقال : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم »(٤)، فأفعال الخلق والإيجاد جارية على تفخيم الإسناد ، لأنها مظهر من مظاهر القدرة الكاملة .

كما يجىء الأسلوب مقترنا بكثير من أدوات التوكيد على نحو ما نرى فى هذه الآية الكريمة « ولقد خلقنا السماوات والأرض » فقد أكد الكلام تنبيها لمنكرى البعث وتبكيتا للمعاندين ، وافتتحه باللام الواقعة فى جواب القسم ثم بحرف التوقع لأن ذكر بخلق شىء توقع الإخبار عما هو أكبر منه .

وقد خلق الله السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ولو شاء لكان ذلك فى أقل من لمح البصر ، ولكنه أراد أن يعلمنا التأنى فى الأمور .

وتنكير لغوب فى قوله « وما مسنا من لغوب » للتقليل أى ما مسنا أدنى مس من التعب والإعياء ، فإنه لو كان لاقتضى ضعفا ، واقتضى فساداً فى شىء من الخلق ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث وأنتم تشاهدون الأمر فى خلق الكل على حد سواء من نفوذ الأمر وتمام التصرف وإحكام الصنع ودقة الخلق .

وفى قوله « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » تقديم الجار والمجرور على العامل أى فسبحه بعض الليل ، والسر فى ذلك الاهتمام بالمقدم ، تنبيها على أهمية صلاة الليل ، وزيادة فضلها فهى أبعد عن الرياء وأدل على الصفاء .

أمر الله نبيه أن ينزهه فى بعض الأوقات من النهار والليل ، وخص

---

(١) المؤمنون ١٢ .
(٢) المؤمنون ١٧ .
(٣) التين ٤ .
(٤) الإنسان ٢٨ .

ما قبل الطلوع والغروب من النهار لزيادة فضلهما وشرفهما ، لكونهما وقتى اجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار ، ولم يعين البعض الكائن من الليل أى بعض هو ؟ للاشارة إلى أن الليل كله زمان الانقطاع عن الشواغل ، فلا وجه لترجيح بعض أجزائه على بعض ، بخلاف النهار فإنه محل الاشتغال بالمصالح، فينبغى أن يعين وقت العبادة منه، ليبقى سائر أوقاته لسائر المصالح.

وفى قوله « وأبار السجود » مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل فالسجود ركن من أركان الصلاة ، وقد أطلق وأريد به الصلاة مجازا مرسلا علاقته الجزئية .

ولعل فى ذلك إشارة إلى أهمية السجود من بين سائر الأركان ، فهو مظهر الخضوع والعبودية المطلقة لله رب العالمين . ولذلك قال ﷺ :أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء .

المعنى :

لما احتج سبحانه على منكرى البعث بما يدل على كمال قدرته ، وهددهم بما يلاقونه عن قريب من عذاب الآخرة ، ثم خوفهم بعذاب الدنيا عاد إلى دليل آخر فقال :« ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » .

أخبرنا سبحانه أنه خلق السماوات والأرض وخلق ما بينهما من أنواع الخلائق المتعددة البديعة فى ستة أيام ، وما مسه من تعب ولا إعياء بسبب هذا الخلق على عظمته واتساعه .

وبالاضافة إلى ما فى ذلك من الرد على اليهود فالآية مسوقة لتكرار دليل البعث على منكريه من مشركى مكة . وقد سبق فى هذه السورة أن وجه الحق تبارك وتعالى أنظارهم إلى مظاهر قدرته وبديع صنعه فى قوله: « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج

والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، ولكن الآية التي نحن بصددها تشتمل على إضافة جديدة في قوله « وما مسنا من لغوب» وهي تفيد أن خلق السماوات والأرض على ضخامتهما وأهميتهما هين يسير على الله سبحانه ، وعلى ذلك فإحياء الموتى أهون عليه من باب أولى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(١) .

إن منكري البعث يعترفون بأن الله هو خالق السماوات والأرض وهو الذي خلقهم ، وهم يعترفون بأن خلق السماوات والأرض اكبر من خلقهم، ولكنهم لا يسيرون مع منطق الأشياء ، لقد كان الأولى بهم أن يفقهوا إلى أن موجدهم من العدم قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى ، وأن القادر على خلق السماوات والأرض قادر على إعادة خلق هذه السماوات والأرض يوم القيامة ، وعلى إعادة خلق جميع الناس، قال تعالى : «أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »(٢) .

وليس المراد بالأيام تلك الأيام المعروفة لنا ، إذ قبل خلق السماوات والأرض لم تكن أيام ، لأن اليوم بليله ونهاره ينشأ من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، إنما المراد بالأيام هنا الأطوار، أو مراحل الخلق والتكوين ، أما قدر اليوم فهو ما لا نستطيع تحديده أو الوصول فيه إلى رأي قاطع ، وقد أخبرنا القرآن الكريم أن الأيام عند الله ليست كأيامنا ، بل إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون كما أخبر في آية أخرى بأن اليوم

---

(١) غافر ٥٧ .

(٢) يس : ٨١، ٨٢ .

مقدار خمسين ألف سنة ، وهو عدد لا مفهوم له كما يقول العلماء ، فهذا ما استأثر الله بعلمه .

ثم يأمر الله نبيه ﷺ أن يصبر على ما يقوله اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه ، أو يصبر على ما يقول المشركون في مكة من إنكار البعث فإن من قدر على خلق العالم قادر على بعثهم والانتقام منهم ، ويأمره كذلك أن يسبح بحمد ربه فينزهه عما لا يليق به من قول أو فعل ، أو يصلي له ويعبده وقتي الفجر والعصر وفي بعض الليل وعقب الانتهاء من الصلوات المفروضة .

الآيات

قال تعالى : « واستمع يوم ينادِ المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

المفردات والتراكيب :

استمع : فعل أمر من الاستماع . وفاعله ضمير مستتر وجوبا تقديره أنت ومفعوله محذوف . أى : استمع لما أخبرك به من أحوال يوم القيامة أو استمع النداء أو الصيحة ، وهى صيحة القيامة .

والمنادى هو إسرافيل ينفخ فى الصور وينادى. وقيل : جبريل وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر(١) .

قال قتادة : هو اسرافيل صاحب الصور . يقول : أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة . إن الله يأمرك أن تجتمعن لفصل القضاء(٢) .

من مكان قريب : من موضع قريب بحيث يسمع الجميع على السواء . قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم(٣)

وقال الزمخشرى : المكان القريب : صخرة بيت المقدس ، وهى أقرب

---

(١) الكشاف ٤/١٢ .

(٢) تفسير أبى السعود ٥/٩٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٧ .

الأرض من السماء باثنى عشر ميلا ، وهى وسط الأرض(١)

والعامل فى الظرف « يوم » فى قوله « يوم ينادى المنادى » هو مادل عليه « ذلك يوم الخروج » أى : يوم ينادى المنادى يخرجون من القبور

و « يوم يسمعون » بدل من « يوم ينادى » .

الصيحة : النفخة الثانية ، وهى صيحة البعث .

بالحق : متعلق بالصيحة . أى حال منها والمراد بالحق هنا البعث والحشر للفصل بين الخلائق .

ذلك يوم الخروج : ذلك : إشارة إلى وقت النداء ويوم السماع . أى ذلك الوقت يوم الخروج من القبور . واسم الاشارة مبتدأ ويوم : خبره ، والخروج مضاف إليه .

إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير :

نحيى ونميت : نحيى الخلائق ونميتهم فى الدنيا ، وليس ذلك لأحد غير الله

وإلينا المصير : إلينا المرجع لا إلى غيرنا . قال تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »(١)

يوم تشقق الأرض عنهم سراعا :

تشقق الأرض : تتصدع وتنفلق ، وقرىء تشقق بادغام التاء فى الشين(٣) .

سراعاً : أى مسرعين ، وهو منصوب على الحال من الضمير المجرور فى « عنهم » .

---

(١) الكشاف ٤ / ١٢ .

(٢) البقرة ٢٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٧ .

ذلك : أى الإخراج العظيم المدلول عليه بفحوى الكلام . أو هو إشارة إلى الحشر المذكور بعده . أى ذلك الحشر حشر يسير : والحشر : الجمع .

بجبار : بمسلط تجبرهم على الإسلام كقوله تعالى: لست عليهم بمسيطر،(١)

وقيل : أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم . ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه . أى : ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان(٢) .

والفاء فى قوله « فذكر بالقرآن » واقعة فى جواب شرط مقدر أى : إذا لم تكن جبارا عليهم تجبرهم على الإسلام ، بل بعثت مبلغا فذكر أى فاقبل على عملك ودم عليه وذكر بالقرآن من يخاف ما أوعدت به العصاة من العذاب .

وعيد : أى ما أعددته للكفار المكذبين ، والعصاة المذنبين من العذاب، فالوعيد : العذاب . والوعد : الثواب قال الشاعر :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته
لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

ولذلك قالوا : الوعد عند الاطلاق لا يكون إلا بخير ، والوعيد لا يكون إلا بشر . كما فى هذه الآية الكريمة .

---

(١) الغاشية ٢٢ .
(٢) الكشاف ٤ / ١٢ ، ١٣ .

أسرار بلاغية :

فى حذف مفعول « استمع » تهويل وتعظيم لشأن المخبر به، وهو يوم البعث الذى كذب به كفار مكة ، وهو حق وصدق . قال تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين »(١) .

وفى وصف المكان بالقرب فى قوله « من مكان قريب » إظهار للعظمة بتصوير كمال القدرة ، حيث يسمع البعيد الصيحة كما يسمع القريب ، فهم فى كل البقاع سواء فى السماع لا تفاوت بينهم أصلا .

وفى قوله « ذلك يوم الخروج » تعظيم بالبعد ، حيث عبر باسم الاشارة الموضوع للبعيد « ذلك » بعد تنزيل البعد المعنوى منزلة البعد الحسى . أى اليوم العظيم الذى يظهر به المجـــد للأولياء ، ويفصل الله فيه بين العباد بالعدل .

وفى قوله: « إنا نحن نحيي ونميت » جاء التعبير بضمير العظمة مع توكيد الـكلام بأكثر من مؤكد ، لأن المقام مقام إنـكار ، فلابد من توثيق الـكلام لنشر الثقة فى قلوب المؤمنين ، ودفع الإنـكار عند المنكرين :

ولذلك صدرت الجملة بأداة التوكيد « إن » وابتدئت بضمير الفخامة « نا » وجاء الخبر جملة فعلية « نحيي ونميت » مسندة إلى ضميره مرة أخرى وذلك يفيد التخصيص مع تقوى الحـكم بتكرار الإسناد .

والتخصيص من أهم الطرق لدفع الشك والإنـكار من نفوس المخاطبين ولا يفوتنا أن التعبير بالفعل المضارع « نحيي ونميت » يفيد التجدد

---

(١) الأنبياء ١٠٤ .

والحدوث المستمر أى نجدد ذلك الفعل شيئاً بعد شيء ، فهى سنة مستقرة وعادة مستمرة ، كما تشاهدون بأعينكم .

وبين المبتدأ والخبر جاء ضمير الفصل « نحن » وهو ضمير العظمة أيضاً ليزيد الكلام قوة وتوثيقا ، ولذلك بلغ الأسلوب من القلب مبلغه .

وإذا كان الله سبحانه هو الذى يحيى ويميت ، وليس ذلك لأحد غيره فكيف يتعسر عليه إحياء الموتى وإخراجهم من القبور يوم الفصل والحساب .

وفى ذلك تقرير للواقع ، وتوكيد للحقيقة ، ودفع لانكار المنكرين للبعث من مشركى مكة وغيرهم . والمقام يقتضى هذا الأسلوب فى مواجهة الكفار المعاندين لما فيه من القوة والجزالة والتوكيد لمعنى الكلام

وتقديم الجار والمجرور فى قوله « وإلينا المصير » يفيد القصر أيضا أى أن المرجع إلى الله لا إلى غيره ، فهو الذى يتولى الحساب والجزاء ، ومقاليد الأمور بيده ، وليس المعاد بأصعب من المبدأ ، فمن أقر به وأنكر البعث فهو معاند مكابر قطعا ولايخفى مافى هذا الأسلوب من تهديد لمنكرى البعث .

وفى قوله « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا » تعبير بفعل المطاوعة لأن المقام يقتضيه ، فاستعمال فعل المطاوعة فيه بيان للطواعية التى يتم بها الحدث تلقائيا أو على وجه التسخير ، وكأنه ليس فى حاجة إلى فاعل . ولذلك أسند الحدث إلى مايقع عليه .

وفى حذف تاء المضارعة إشارة إلى سهولة الفعل وسرعته ، وفى قوله « ذلك حشر » تعظيم للحشر باستعمال اسم الاشارة الموضوع للبعيد أى الاخراج العظيم جدا حشر ، أى جمع ميسور .

وقد ذكر الحشر هنا ، للتعظيم من شأنه . وكيف لا ، وهو مظهر

من مظاهر القدرة القـــادرة ، وآية من آيات العظمة والجلال للواحد القهـار .

وتقديم الجار والمجرور فى قوله «علينا يسير» على العامل يفيد القصر أيضا ، أى لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القـــادر الذات الذى لا يشغله شأن عن شأن(١) .

قال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة »(٢) ، فالبعث هين يسير على الله ، عسير بل مستحيل على غيره .

ولما أقام الأدلة على إحاطة القدرة وشمول العلم ، وختم بسهولة الحشر عليه واختصاصه به ، وصل بذلك قوله «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

وعلم القادر بما يفعل العدو المناهض للدعوة أعظم بشارة للرسول ، وإنذار وتهديد لهؤلاء الجاحدين ، ولذلك عبر بضمير الفخامة «نحن» وهو يوحى بالثقة والاطمئنان استنادا إلى تلك القوة القاهرة التى لا يعجزها شىء . أى نحن لاغيرنا أعلم من كل من يتوهم فيه العلم بما يقولون من إنكار البعث وغيره مع إقرارهم بقدرتنا .

فنحن قادرون على ردهم وردعهم بما لنا من العـــلم المحيط والقدرة الفائقة ، وأنت منذر لهم تنذرهم وبال ذلك «إن أنت إلا نذير »(٣) .

ولذلك عطف عليه قوله : « وما أنت عليهم بجبار» أى بمتكبر قهار تردهم قهرا عن الكفر إلى الإيمان . قال تعالى :

---

(١) الكشاف ٤/١٢ .　　(٢) لقمان ٢٨ .

(٣) فاطر ٢٣ .

« إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »(١) ، وإذا كانت هذه مهمتك، أى هداية الخلق وإرشادهم فذكر بالقرآن الجامع لكل خير وصلاح من يخاف وعيد. وكل عاقل يخاف الوعيد ، ولكنه عبر باسم الموصول وصلته إعلاما بأن الذى يخاف بالفعل ، فيتهيأ الأمر به إلى الدخول فى الإسلام هو المقصود بالذات . وغيره إنما يقصد لإقامة الحجة عليه فحسب . ولذلك خص بالتذكير من يخاف وعيد الله ، إذ لا ينتفع بهذا الوعظ والإرشاد غيره .

فالغرض من الأسلوب الخبرى فى هذه الآية الكريمة تسلية الرسول ﷺ ، وتثبيت فؤاده . وتهديد الكافرين ووعيدهم .

المعانى :

تمضى السورة الكريمة فى طريق البشارة للرسول والتهديد للكافرين. وفى هذه الآيات يخاطب الله نبيه ﷺ — فى شأن البعث الذى كذب به المشركون وعجبوا منه فيقول : واستمع يا محمد النداء حين ينادى إسرافيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى جميع الخلائق على السواء فيقول: أيتها العظام النخرة والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وعندئذ تسمعه جميع الخلائق فينهضون للحشر والحساب .

فهذا اليوم الذى ينادى فيه المنادى هو اليوم الذى يسمعون فيه صيحة البعث والنشور فيخرجون من قبورهم للعرض على الله ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، فيثبت الأمر الذى ارتابوا فيه ، واستبعدوه ، ويظهر صدق الرسول فيما أخبرهم به من أحوال الدار الآخرة .

---

(١) الرعد ٧ .

وفى هذا الجو الرهيب ، يقرر الحق سبحانه الحقيقة التى كذبوا بها ، وأنكروها لأول وهلة ، وهى قضية الحياة بعد الموت فيقول : « إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير » أى إنا نحن بعظمتنا وشمول قدرتنا نحيى الخلائق أولا ، ونميتهم فى الدنيا ثم نحييهم للجزاء فى الآخرة . فالله هو وحده المحيى المميت لا يشاركه فى ذلك أحد ، وإليه المرجع للحساب والجزاء فى الآخرة . وذلك يوم تنشق الأرض عنهم ، فيخرجون من القبور أحياء مسرعين ، إلى موقف الحساب . وذلك أمر يسير هين على الله مستحيل على غيره .

وفى ختام السورة الكريمة يقول الله تعالى تسلية لنبيه ، وتهديداً للكافرين :

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » أى : نحن أعلم بما يصدر عن هؤلاء الكافرين من التكذيب بالبعث والاستهزاء بك وبرسالتك وسنحاسبهم على كل ما يقترفونه من آثام ، فلا تفزع من تكذيبهم ، ولا يحزنك قولهم ، وما عليك إلا البلاغ « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(١) .

وما أنت مسلط عليهم حتى تجبرهم على الإيمان « إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »(٢) .

وإذا كانت مهمتك هى إرشاد الخلق وتذكيرهم بالحق ، فبلغ رسالة ربك . وذكر بهذا القرآن الجامع لكل فضل وخير من يخشى الله تعالى ، ويخاف وعيده ويحرص على رضاه .

---

(١) الكهف ٢٩ .

(٢) الغاشية ٢١ ، ٢٢ .

اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا ذا الجـــلال والإكرام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله أولا وآخرا ؟

القاهرة : مساء الإثنين

١٩ من أكتوبر سنة ١٩٨٧ م

الموافق ٢٦ صفر سنة ١٤٠٨ هـ

أهم المراجع

١ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم	أبو السعود العمادى
٢ — بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز	الفيروز ابادى
٣ — تأملات فى سورة الذاريات	محمد بكر إسماعيل
٤ — التبيان فى أقسام القرآن	ابن القيم
٥ — تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
٦ — الجامع لأحكام القرآن	القرطبى
٧ — حاشية الانتصاف على الكشاف	ابن المنير الاسكندرى
٨ — حاشية شيخ زاده على البيضاوى	شيخ زاده
٩ — حاشية الجمل على تفسير الجلالين	الجمل
١٠ — صفوة التفاسير	الصابونى
١١ — فى ظلال القرآن	سيد قطب
١٢ — الكشاف	الزمخشرى
١٣ — معترك الأقران	جلال الدين السيوطى
١٤ — نظم الدرر فى تناسب الآى والسور	برهان الدين البقاعى

رقم الإيداع بدار الكتب
٤٠٥٤ / ١٩٨٨ م